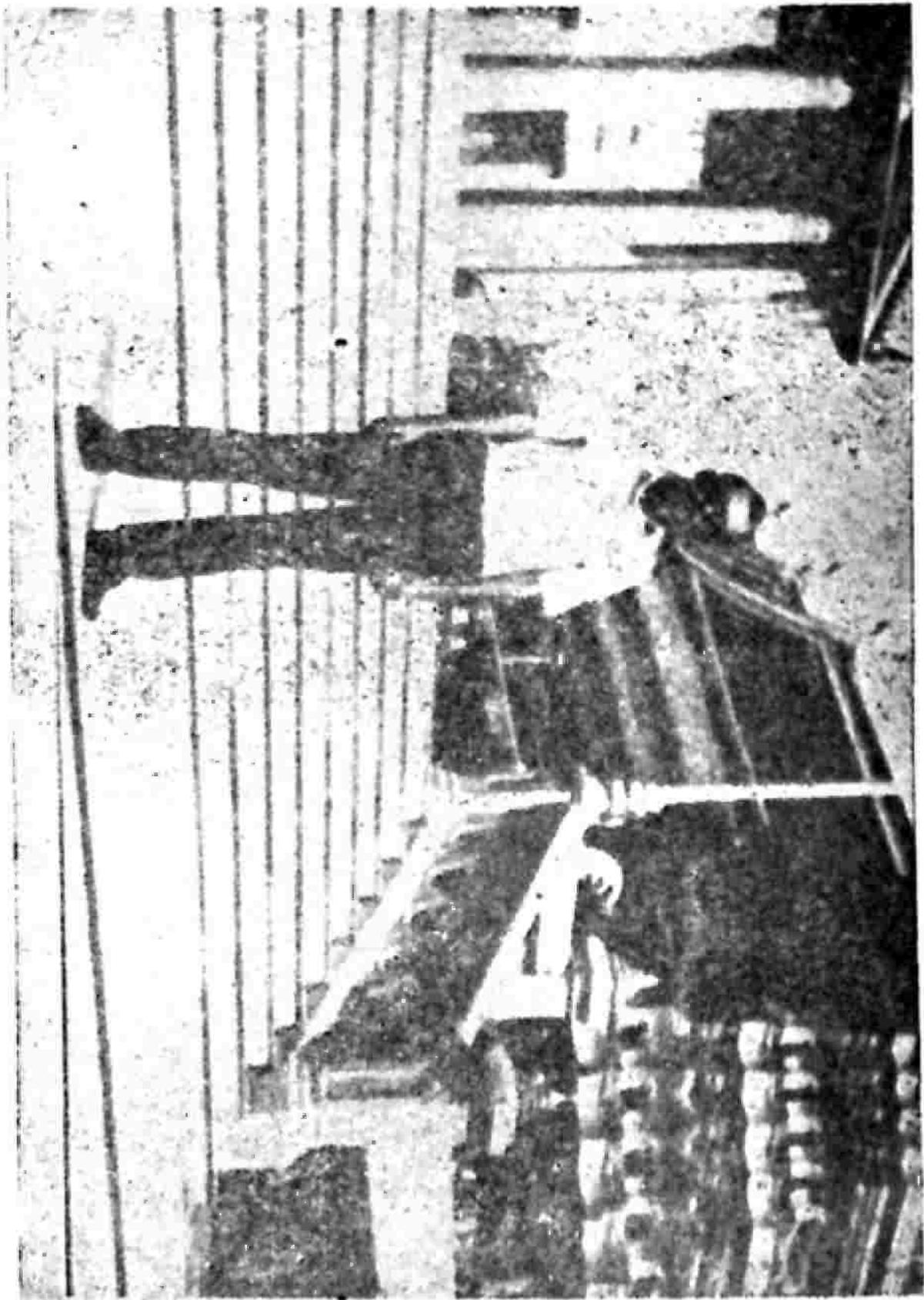


## أيام في ( تايلاند )

وصلت إلى بانجكوك عاصمة تايلاند في الساعة الثانية بعد الظهر . وجدت سائق سيارة الفندق ينتظري . إنه شاب نحيف ، شعره الأملس الأسود يسقط فوق جبهته فيزيحه عنها بحركة سريعة من الرأس . قاد السيارة الفولكس بسرعة جنونية طوال الخمسين دقيقة من الضاحية التي يوجد فيها المطار إلى فندق فيكتوري ( النصر ) في شارع سيلوم . الشارع عريض ناعم كالحرير يندفع فوقه سبل لا ينقطع من السيارات تكاد مقدمة كل سيارة تصطدم بمؤخرة الأخرى . والجميع يسيرون بالسرعة الجنونية نفسها كأنهم حلقات سلسلة واحدة ، مترابطة ، تتحرك في وقت واحد ، وتقف في وقت واحد ، أو كعربات يجرها قطار .

أول الأمر شعرت بالجزع . ولكن بعد قليل تركت نفسي بين يدي السائق وقد أحسست بالاطمئنان إزاء مهارته الواضحة . وطوال الأسبوع الذي أقمته في « بانجكوك » كنت أتعجب من دقة المرور وسرعته . الجميع يحترمون القواعد . الأولوية تعطى دائماً للذي يأتي من اليمين ، ولا أحد يخرق هذه الأولوية . وآلة التنبيه لا تستعمل أبداً . والمشاة هم سادة الطريق . فسائق السيارة يقف في هدوء لينتظرهم حتى يجتازوا الشارع أياً كانت النقطة التي يجتازونه منها . ولا أحد يتشاجر أو يلوح في عصبية ، أو يبدو عليه الضيق . وكل هذا في سرعة ونظام يبدو كالحلم الميكانيكي المنساب . تذكرت المرور في شوارع أمريكا ولكنني أحسست هنا بأن الدقة تفوق دقتهم .

لقد لفت نظري من أول لحظة ظاهرتان : أثر الغرب ، وأمريكا بالذات ، في هذه المنطقة من العالم ، والقدرة الآسيوية على المحاكاة . والتقليد ، وعلى تقبل كل نظام دقيق ، مهما كان صارماً في دقته .



تایلند : ( بانجکوک ) « أحمد أمين الدين » سائق السيارة

وهاتان الظاهرتان كان مقدراً أن أراهما في عديد من نوحى الحياة التى  
شهدتها فيما بعد .

الشارع الطويل المربض بحرق الخمول الخضراء التى تمتد إلى الأفق  
على الجانبين . ولكن على حافة الطريق ارتفعت خطوط متصلة من  
المباني الخديثة يغلب فى تصميمها الحديد الأسود والترجاج ، وأعمدة  
المسلح . العمارة أمريكية والمباني شركات أمريكية ، أو فروع لهذه  
الشركات أضيفت إليها أسماء تاييلاندية . كلها بنوك أو شركات تأمين  
أو شركات تجارية أو مخازن . لم أر طوال المسافة التى استغرقت ساعة  
تقريباً إلا مصنعاً واحداً صغيراً للخشب .

توقفت السيارة أمام الفندق . فى لمح البصر وجدت نفسى فى الحجرة  
الصغيرة الأنيقة أستمتع بتيار الهواء البارد المنبعث من جهاز التكييف ،  
وقد أدركت لأول مرة كيف أن هذه الأجهزة يمكن أن تحول المباني  
والحجرات إلى جنة صغيرة يأتى إليها الناس هرباً من القىظ العنيف ،  
والرطوبة الخائفة التى تميز هذه المنطقة من العالم .

أفرغت حقائى ، فى الدواليب والأدراج . وبعد حمام ساخن ارتديت  
ملابس نظيفة ، وتأهبب للنزول . كان أمامى يوم ونصف إجازة أزور  
فيها المدينة قبل أن أبدأ المهمة التى جئت من أجلها ، فى تاييلاند ،  
وعلى الأخص فى العاصمة « بانجكوك » : الإجازة نصف يوم النسبت  
ويوم الأحد بأكمله .

نزلت إلى الشارع بشعور المقدم على مغامرة مثيرة لأجد نفسى فى  
قلب « بانجكوك » : مدينة عصرية يسكنها خمسة ملايين نسمة وتتسع  
بسرعة جنونية . فالمهاجرون إليها من الريف الذين يضافون إلى العدد  
الضخم من المواليد الجدد كل سنة يجعلون معدل النمو الطبيعى فى عدد  
سكانها يصل إلى ٦ ٪ . المدينة مبنية على مساحات شاسعة ، وفى كل

مكان ترتفع مظاهر العمران السريعة في شكل مبان حديثة على الطراز الأمريكي ، تقسمها في أغلب الأحيان شركات عقارية أمريكية .  
 و : بانجكوك ، فريدة في أنها المدينة الوحيدة الكبيرة في تايلاند .  
 حيث إن المدينة الثانية بعدها والتي تبعد عنها بمسافة لا تزيد عن ١٥٠  
 كيلو متراً ، لا يسكنها سوى ١٠٠,٠٠٠ نسمة .

### نساء المدينة !

سرت في الشارع متمهلاً أعاني من لفحات الحر الحارقة . ولولا  
 الوجوه السمراء ، والعيون المسحوبة الآسيوية ، والأجساد القصيرة النحيفة  
 لا اعتقدت أنني في مدينة أمريكية : البيوت ، والشوارع والشرطة بخوذاتهم  
 المتميزة ومسدهاتهم . وعصبيهم القصيرة من المطاط والتي تتدلى من الحزام ،  
 ومتوسيكالاتهم الحمراء الضخمة التي تنطلق بصوت كالرعد ، أو سياراتهم  
 الفارحة تزحف عبر الشوارع ، ككلاب الصيد تبحث عن رائحة  
 انضحية . ومجلات « السوبرماركت » الكبيرة تستمتع فيها بنعمة التكيف ،  
 وتتجول عبر ردهاتها الطويلة بين الأقسام والأدوار المختلفة لترى كيات  
 وأنواعاً لا تنتهي من البضائع المستوردة . حتى المأكولات هي بالضبط  
 تلك التي كنت أبتاعها في شيكاغو أو واشنطن ، أو نيويورك .

« المينيبيب » القصير للغاية يرتديه جميع النساء في المدينة ما عدا  
 كبار السن أو ساكنات الأحياء الفقيرة . وأنت لا تستطيع أن تحدد سن  
 المرأة التايلاندية أو الرجل التايلاندي فجميعهم يبدوون كالشباب . والتغيير  
 يحدث عندهم ربما في وقت ما بعد الخمسين ، لتجد نفسك فجأة أمام  
 امرأة عجوز ، وكأن ثقل السن ينقض عليها دفعة واحدة ، أو كأن  
 الشيخوخة مرض مفاجئ يصيب الإنسان بدون مقدمات . وبقدر ما كنت  
 أحسن بسحر هذا الشباب الدائم ، كنت أفشع أمام هذا العجز الذي  
 يوحى بالموت بالقدر نفسه .

والنساء في بانجكوك جميلات للغاية. فهنا البشرة البيضاء ، والشعر الأسود المنسدل مثل الحرير . والأجساد النحيفة الرشيقة في الثوب تقصير تسير في ليونة وخفة وسرعة عبر شوارع المدينة ، وهن يرتدين الأحذية المنضحة الحالية من الكعوب . فالجمال هنا يقترن بالبساطة وبالأشياء العملية . إنك لا تجدهن يتسكعن في الطرقات ، بخطوات متملكة متعثرة فوق الكعوب العالية ، مثل أسراب البط المزهقة . بل الخطوات سريعة تحسن أنها تقود إلى هدف محدد ، وانوجوه وتعيون متجهة إلى الأمام ، لا تنظر هنا أو هناك ، ولا تجد تجمعات من النساء يبحلقن في « الفترينا » ويتنقلن من محل إلى محل في غزوة شرائية تستمر عدة ساعات .

هذا السلوك العملي لاحظته في الرجال أيضاً . ولكنه لفت نظري في النساء بشكل خاص . فعندما ذهبت إلى تايلاند كنت أظن أنني سأجد كثيراً من المظاهر التي تشترك فيها البلاد النامية ، ومنها ظاهرة التعتل والبطالة بين النساء . كنت أظن أن النساء في المدينة شأنين شأن نساء القاهرة مثلاً ، أغلبين من ربات البيوت .

ولكن منذ أول يوم لاحظت ظاهرة لفتت نظري وأنا أسير عبر شوارع المدينة الكبيرة . في كل عمل يقوم به الرجال تجد إلى جوارهم النساء . لا تجدهن فقط في المكاتب ، والمحلات التجارية . والمهن ، ولكنهن أيضاً في جميع الأعمال مهما كانت شاقة . إنهن يقمن « التاكسيات » والمتوسيكالات ، ويقفن مناديات عند أماكن الوقوف المحددة للسيارات وقد حملن بين أيديهن دفاتر «الوصولات» التي تعطى لصاحب السيارة عند دفعه المبلغ المقرر لوقوف السيارة .

وهذا هو ما رأيته أيضاً في « سنغافورة » وفي « كوالالامبور » عاصمة ماليزيا . إنهن يشاركن الرجل في العمل عندما يفتح مطعماً أو محلاً تجاريًا . فتجد الزوجة والأخوات والبنات جميعهن يساهمن في أعمال الإدارة ، وفي خدمة الزبائن ، بل في كثير من الأحيان يقمن وحدهن

بجميع هذه الأعمال لا فرق بين وبين الرجال . وفي المواقع العديدة التي تنشأ فيها العمارات ، والمباني الحديدية يمكنك أن تشهد من وهن يصعدن السقالات العالية حاملات « قصاع » الأسمنت وأحمال الطوب ، أو يقمن بحلط الأسمنت ، أو يشاركن في عملية البناء نفسه . فكما يوجد أسطوانات من الرجال يوجد أيضاً « أسطوانات » من النساء . ينتمين إلى مهنة « البنائين » .

وهذه الظاهرة غير المتوقعة تعطيك إحساساً بالرتق والتقدم ، فهي ظاهرة تنعكس على عديد من نواحي الحياة الأخرى . فالعلاقات بين الجنسين ، بين الرجل والمرأة ، بين الشبان والشابات لا يشوبها كثير من الأعراض المرضية التي تجدها حيث تبقى المرأة أو الفتاة سجينه بين جدران البيت . فلم أر طوال الأسبوع الذي أقمته في « بانجكوك » تجمعات من الشباب على نواحي الشوارع يشغنون بتلك المعاكسات السخيفة التي أصبحت جزءاً من حياتنا اليومية ، ولم ألمح تلك النظرات العطشى على وجوه الشبان والشابات ، والرجال والنساء ، التي نراها وهي تتبادل بطريقة صريحة أو خفية في الطرقات ، وعلى الأرصفة ، ومن نوافذ البيوت .

وعندما انتقلت فيما بعد إلى خارج « بانجكوك » إلى المناطق الريفية المجاورة التي تبعد ما يقرب من ٦٠ كيلو متراً عن العاصمة ، وجدت صوراً أخرى من الظاهرة نفسها فهذه المنطقة تخصص في زراعة الفواكه ، والخضراوات ، لتأمين المدينة . والناس يعتمدون في تنقلاتهم على مجارى المياه . على القنوات والأنهار ، التي تشق المساحات الواسعة بشبكة مترامية من المسالك المائية ، والتي يعبرونها في القوارب الرفيعة يدفعونها عبر المسافات الطويلة إما بالاعتماد على الجاذيف أو على المحركات الصغيرة التي يشيئونها في مؤخرة القارب ، وتدفع هذه القوارب بسرعة كبيرة فوق المياه الحمراء للهر تشبه في لونها مياه النيل في موسم الفيضان قبل بناء

السد العالي . وترتفع المقدمة الشديدة لتقارب في الهواء ويشق قاعها الخاد  
كالمسكين مياه النهر حينئذ أمواجاً عالية ، وسحباً من الرذاذ المنعش .  
وهذه القوارب تستخدم أيضاً ، كـ «توبيسات نهريّة» يمكنها الأفراد ،  
ويكسبون من ورائها عيشهم عن طريق نقل الناس وبعض البضائع  
الخفيفة .

وقد رأيت عشرات ، بل مئات من النساء يقطن هذه القوارب المسرعة  
أو يدفعنها ، بالمقاذيف « عبر القنوات الضيقة ، أو فوق الأنهر العريضة  
المتدفقة : وقد وضعن في القوارب أكواماً من الفواكه ، والخضراوات ،  
يحملنها إلى « الأسواق العائمة » في أطراف مدينة « بانجكوك » ، أو بعض  
الحاجيات التي ابتعنها ليعدن بها إلى بيوتهن .

وهكذا نرى أن المرأة الريفيّة ، شأنها شأن المرأة في المدينة تتحمل  
عبئاً مثل الرجل وتتمتع بقدر كبير من الاستقلال في العمل .

ولكنني شاهدت مظاهر أخرى لحياة المرأة تبين أن أدران الماضي  
ما زالت تثقل كاهلها في كثير من نواحي الحياة . ففي الليلة نفسها  
خرجت إلى الشارع بحثاً عن بعض نسيات منعشة بعد حرارة اليوم  
المرهقة . لم تكن قد أدركت بعد أن لا فرق هناك بين النهار والليل ، وأن  
ليالي الصيف في القاهرة نعمة لا تجدها في هذه المنطقة من العالم . فالجو  
هناك ثابت ، لا يتغير تقريباً بين المواسم ، ولا يخلف بين ساعات النهار  
والليل . وقفت أمام أحد المحالّ أتطلع إلى جهاز صغير للتسجيل  
بصلح لأعمال المكتب . أحسست بشخص يقف إلى جوارى ، فالتفت  
ناحيته لأجد شاباً وسيماً ، جسده المشقوق يبدو قوياً تحت القميص  
الأبيض ، والسروال الضيق الذي يلتصق بعضلات فخذيّة ويظهرها .  
ابتسم إلى في ود ثم نطق بلغة إنجليزية وكويكة تشوبها تلك اللكنة الآسيوية  
الحادة المميزة :

« أتريد أن تشتري هذا الجهاز ؟ »

قلت : « ربما » .

ظننته بائعاً في اخل . تصادف وجوده في هذا المكان فسأنته :

« أتعرف ثمنه ؟ » .

قال :

« أعتقد أنه يساوي ثمانين دولاراً أمريكياً . »

« حسناً . سأعود غداً لأستكشف مزاياه »

وهمت بالانصراف .

قال :

« أين أنت ذاهب ؟ »

« سأعود إلى الفندق » .

« هل لديك مانع من أن أصاحبك جزءاً من الطريق ؟ »

« تفضل » .

سرنا جنباً إلى جنب بخطى بطيئة على الرصيف .

سأل :

« من أي بلد أنت ؟ »

« من مصر » .

« أمعك أسرتك ؟ »

« لا ، وحدي »

سكت برهة ثم قال :

« ألا تريد أن تقضى ليلة ممتعة ؟ »

استيقظت طبيعتي الحذرة فتوقفت وحملت في عينيه الحادثتين لحظة

وقلت :

« ماذا تقصد ؟ »

« توجد أفلام حية ممتعة يمكنك أن تراها »

« رأيتها من قبل ، ولم أجد فيها شيئاً يجذبني . »

« حسناً ، وليكن . ألا تريد بنتاً جميلة تفضي معها الليلة ؟ »

« لا أشعر بحاجة إلى ذلك . »

صمت كأنه يفكر فيما يمكن أن يقترحه بعد ذلك . قررت أن أستفيد

من هذا اللقاء لأعرف بعض الأشياء . فمثل هؤلاء الرجال يعرفون الكثير .

قلت :

« ما الذي دفعك إلى هذا العمل ؟ أنت شاب تبدو عليك الوسامة ،

والذكاء . ألا تستطيع أن تختار عملاً آخر ؟ »

اختلفت ابتسامته وبدأت عليه مسحة من الكآبة .

« ربما . فرص العمل ليست كثيرة . »

« لماذا ؟ »

« لم أستكمل الدراسة و فرص العمل هنا محدودة . التجارة في الحرير ،

والجواهر ، هي نشاط بانجكوك الأساسي . »

« والمصانع ؟ »

« لا توجد مصانع ! »

« والدعارة ؟ »

« تجارة رابحة هي والمخدرات »

« وهل تجارتكم هذه منتشرة ؟ »

« جداً »

« ولكن لاحظت أن النساء يعملن عندكم في كل أنواع النشاط .

فهن لسن في حاجة إلى مثل هذا العمل . »

« نحن نجيبين من المناطق الريفية الفقيرة . البعيدة عن بانجكوك » .  
حيث تضيق سبل العيش إلى حد الجوع . . .

« وكيف تجلبونهم . . . »

« نشترينهم من الأسرة . من الآباء مقابل عقود عمل وهمية في المدينة .  
وندفع مبالغاً مقدماً بغريبتهم على الموافقة . ثم بعد ذلك لا شيء . . . »

« أتعرف كم عدد من في بانجكوك ؟ »

« لا أعرف بالضبط ولكن أعتقد أنه يقرب من ستة آلاف . . . »

« كنا قد أصبحنا أمام الفندق . فدعوته إلى الدخول ولكنه أبى .  
ابتسم فاحيتي مرة أخرى وقال :

« ألا تريد أن تغير رأيتك ؟ »

« قلت : أشكرك » .

مد إلى يده وضغط على يدي بسرعة ثم انصرف . رأيت جسمه اللدن  
القوى يختفي في الظلام .

وربما كان هذا هو أكثر الجوانب قتامة في حياة بعض النساء في  
بانجكوك . ولكنني أحسست بأشياء أخرى : وإن كان هذا الإحساس  
لا يستند إلى أكثر من مجرد الانطباع السريع : وخبرة الحياة المترسبة في  
الأعماق .

النساء هنا جميلات ورشيقات للغاية . ولكنه جمال من نوع غريب ،  
لا حرارة فيه ولا شخصية كأنهن دمي مستسلمة وديعة يتبعن الرجال ،  
ويأتمرن بأمرهم بدون منادشة . ومظاهر التحرر تحس أن فيها شيئاً غير  
سوى ، كأنه تحرر في المظهر ، في الجسد ، وربما تحرر من الخلق ،  
ولكنه ليس تحرراً في الفكر ، وفي العواطف . لقد فوجئت بعدد كبير من  
النساء يدخن في أثناء السير في الشوارع . ولا أعتبر نفسي من المتزمتين

ولكن هناك شيئاً ما في هذا المنظر أشعرتني بوجود نوع من التحلل ربما زحف إلى المدينة . إني بانجكوك بالذات .

على كل حال لم أستطع أن أرى شيئاً كبيراً في هذا اليوم الأول . ربما كنت أوفر حظاً في عهد فاماى يوم بأكمله أستطيع أن أتجول فيه عبر المدينة . وألتقط الأشياء وأسجلها . فقدرة الإنسان على الملاحظة تضعف في أثناء السفر وكأن جميع مسام الجسم وحواسه مفتوحة لتستشق مما حولها : كالإسفننج يمتص حتى التشبع .

### صديق السائق

في صباح اليوم التالي كنت أسير في شارع سيلاوم أمام فندق « كاثاى باسفيك » حينما استوقفتني رجل طويل القامة بشرته سمراء . لولا وجنتاه العالية . البارزة قليلا . واستطالة عينيه الصفيرتين لكان من الممكن أن يكون من أهل أسوان . قال لي بالإنجليزية :

« صباح الخير ياسيدى . هل أستطيع أن أؤدي لك خدمة ؟ »

توقفت عن السير وابتسمت قائلاً :

« أية خدمة تلك التي تقترح أن تقدمها لي ؟ »

« لدى سيارة أجرة . ويمكننا أن نتجول فيها . وأن ترى مدينة

بانجكوك . »

ترددت حظات قبل أن أجيب . شيء في هذه المدينة يندب بالمخاطر المستترة كنت قد تعودت عندما أنزل إلى مدينة غريبة أن أتجول فيها سيراً على الأقدام . أو أن أركب المواصلات العادية . وربما تكون هذه الوسيلة مرهقة إلى حد كبير . ولكنها أفضل طريقة للتعرف على الأماكن الجديدة . ودراسة معالمها وشوارعها ، وحياة الناس فيها . فضلاً عن أن هذه الطريقة تجعلك تختلط بالناس ، وترى كيف يعملون ويعيشون تتبادل معهم الأحاديث في شتى المسائل .

ولكن هذه المرة ليس سوى يوم واحد . وبعد ذلك سأكون مشغولاً بالاطلاع على برنامج تنظيم الأسرة في تايلاند الذي اجتزت من أجله مسافة خمسة آلاف كيلومتر من القاهرة إلى بانجكوك . المعرفة لا تأتي إلا بشيء من المخاطرة . بالأدب متغلباً . منعزلاً في قوقعتك ماذا يمكن أن يحدث ؟ إنه سائق سيارة مرخص يتمف أمام باب أحد الفنادق الكبيرة ، الاحتمال الوحيد هو أن أسرق وما دمت لا أحمل معي سوى مبلغ محدود من المال فإن الموضوع لا يستحق كل هذا الخذر .

قلت :

« كم تكلفتني هذه الرحلة ؟ »

فكر قليلاً كأنه يحسب . ثم أجاب :

« ثلثائة وخمسون باطاً<sup>(١)</sup> . وسأبقى معك حتى منتصف الليل . »

نظر في ساعته يده واستطرد :

« الساعة الآن العاشرة صباحاً . . إذن ستجوز لمدة أربع عشرة ساعة . »

فكرت سريعاً . كنت قد اطلمت على نشرات الشركات السياحية في الفنادق ، وعرفت أن جولة مدة يوم عن طريق الأنوبيسات تتكلف اثني عشر دولاراً . قلت :

« أنا على استعداد لأن أدفع مائتين وخمسين باطاً<sup>(٢)</sup> . »

حملني في وجهي ثم ابتسم :

« من أي بلد أنت ؟ »

« من مصر . »

« من مصر ؟ من بلد ناصر ؟ »

« نعم . »

« أنت مسلم إذن . »

(١) ما يقرب من ١٥ دولاراً . (٢) عشرة دولارات تقريبا .

« نعم مسلم » .

اتسعت الابتسامة على وجهه وزحمت لأول مرة إلى عينيه ،  
فأضاعتها بيريق قوي قضت على نظرة نكابة التي كانت تطل منها  
منذ لحظات ، نظرة شخص يزاو عمنية تكررت آلاف المرات حتى  
فقد حماسه لها .

« وأنا مسلم أيضاً . اسمي أحمد الحاج أمينو الدين » .

أخرج من جيبه ورقة صغيرة بيضاء متسخة ، وممزقة من كثرة ما  
طويت . مد يده بها إلى . أخذتها وفتحها بحرص شديد حتى لا تتمزق  
تماماً . لأجد بضع كلمات مخطوطة بقلم من الرصاص . . خليطاً من  
الحروف الكوفية : والنسخ ، والرقعة تعلو وتهبط على السطح المصفر  
في سطور متعرجة كلمات تدرك أن الذي كتبها لا يعرف إلا أقل  
القليل عن اللغة العربية .

« أحمد الحاج أمينو الدين » .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم مالك يوم  
الدين إياك نعبد وإياك نستعين » .

هزرت رأسي . طويت الورقة وأعدتها إليه . أخرج عنفظته ووضعها  
بعناية داخلها ، ثم أعاد المحفظة إلى جيب سرواله الخلفي .

قال :

« نحن إخوة . هيا بنا . سيارتي هناك » . أشار إلى سيارة « ستوديبيكر »  
تقف بجوار الرصيف عند المدخل الرئيسي للفندق ، فتبعته . فتح لي  
الباب الخلفي فأشرت إلى المقعد الأمامي . ضحك مسروراً . فتحت الباب  
وجلست إلى جواره . أدار « الكونتكت » وضغط البنزين بقوة كأنه  
يشعر بسعادة عند سماع صوت المحرك . تحركت السيارة في انسياب وانضمت  
إلى التيار المتدفق عبر الشارع العريض .

سألني :

« أين تريد أن تذهب ؟ »

قلت :

« ماذا تقترح ؟ نزور أولاً بعض المعابد البوذية .  
حسناً وبعد ذلك يمكننا أن نتجول في " سوق الأحد " . ثم

نذهب إلى مدينة " تيملاندا " في ضواحي " بانجكوك " .  
« ما هو سوق الأحد هذا . أليس سوقاً مثل كل الأسواق ؟ »  
« نظر إلى كآند برى لحالي ثم ابتسم ابتسامة غامضة كمن يحتفظ  
بمفاجأة سارة . وقال :

« سترى بنفسك » .

« لم تحدثني عن مدينة تيملاندا » .

« إنها مدينة سياحية » .

« أنا لا أحب المدن السياحية » .

« ولكن كل من يحضر إلى بانجكوك يذهب لزيارتها » .

« أنت منظر الجولة وسأتركها لك . ولكنني سمعت عن سوق اسمه

" السوق العائمة " . ماذا لا نذهب إليه ؟ »

« لك حق ، إنه يستحق الرؤية . ولكنه يبدأ في الصباح الباكر

وينتهي الساعة الحادية عشرة . ولم يعد أمامنا متسع من الوقت فالساعة  
الآن العاشرة والنصف » .

« ولكنني أريد أن أذهب إلى النهر هناك » .

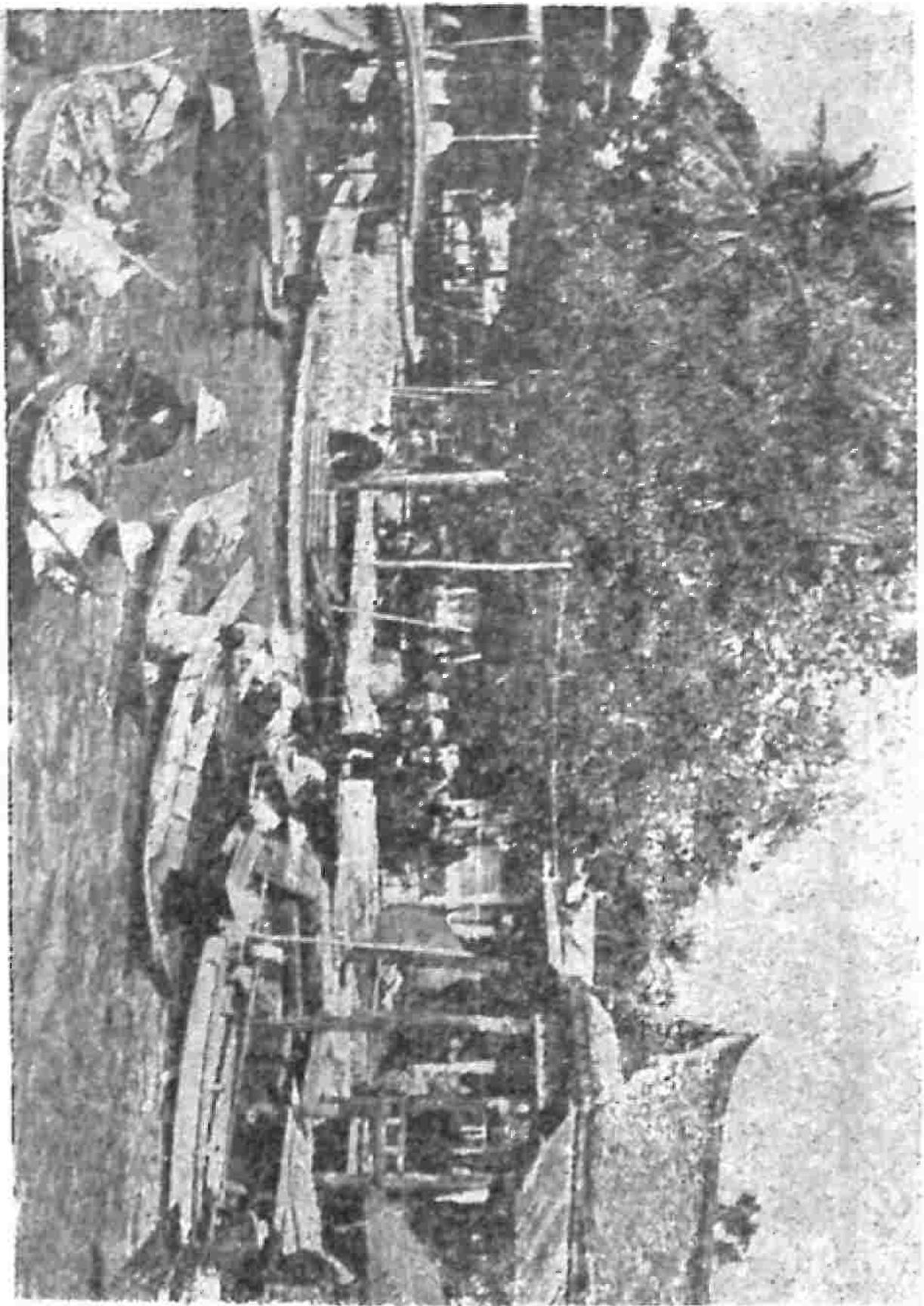
« وهو كذلك . هذا ممكن » .

« ولي طيب آخر . أريد أن أذهب إلى الريف . وأن أزور أسرة

ريفية . سأقضي الأسبوع كله في بانجكوك . وربما تكون هذه فرصتي

الوحيدة لرؤية الحياة خارج العاصمة » .

« وهذا ممكن أيضاً » .

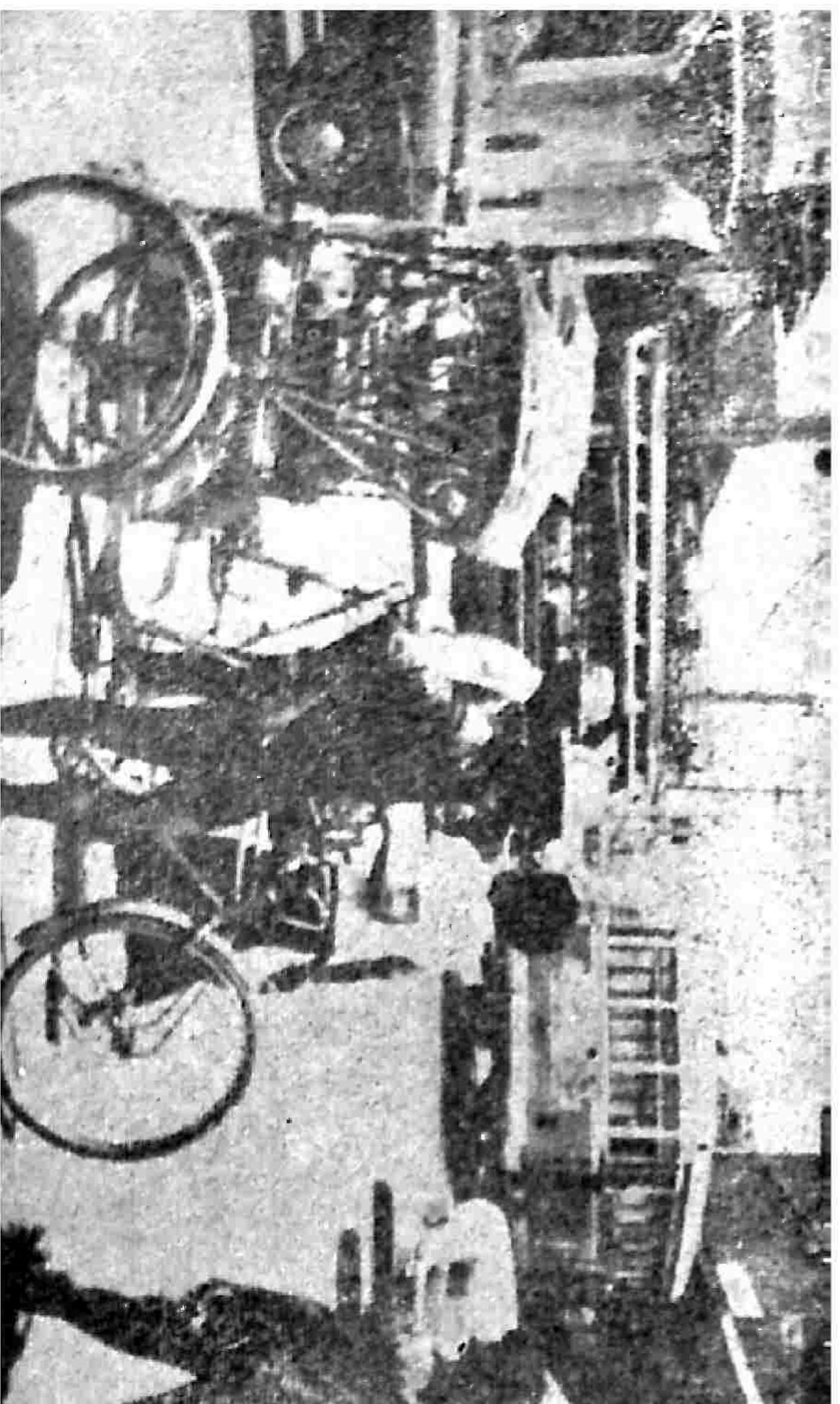


تايلاند : السوق المائية

## الركشا والإنسان !

تضلعت إلى الشارع المزدهم . كنا نمر عبر الحى الصينى . حركة لا تنهى من الناس . والسيارات . والموسيكالات . هنا وهناك ترى «الركشا» عربة صغيرة يركب فيها اثنان ويجرها رجل : ترى عروقه النافرة فى العنق . والأنتناس اللاهثة . والعرق المبهمر على وجهه . وجسمه ، يجعل من التمسيس الذى يوتديه خرقه مبالغة بصدوره ، وبطنه وظهوره . منظر غريب يشعرك إلى أية درجة يمكن أن يصل إليه أمبان الإنسان لأخيه الإنسان . للإنسان التقمير الذى يبحث عن لقمة العيش يسكت بها بعض آلام الجوع . طوال المدة التى قضيتها فى المدن الآسيوية الخائنة كنت أرى هذا المنظر المثير للشفقة ونافصب فى آن واحد ، منظراً كان يملأ قلبى حزناً ثقيلاً . ويفسد على متعة البحث عن الحديد . عرض على أن أركب «الركشا» . كنت أرفض بإصرار . لم أكن أتصور نفسى جالساً فى المقعد والرجل المدهق يجرف وكأنه دابة . وأمام إصرارى هذا كان أصدقاؤى ينظرون إلى فى دهشة . إن «الركشا» شىء عادى فى حياتهم . شأنه شأن عديد من مظاهر اليؤس التى تمر أمام عيني فى شوارع القاهرة . فلا تثير انفعالا خاصاً إلا بين الحين والحين . التعود . . عدو خطر فى حياة الإنسان .

ولكن «الركشا» العادية تنقرض فى شوارع بانجكوك، على الأقل ، مثلما انقرضت العربة الحنطور فى القاهرة . تذكرت ليلة أن ركبنا عربة حنطور فى الإسكندرية من محطة الرمل حتى محطة بولكى ، أنا وزوجتى والفتاة الفارعة ذات العينين الجادتين التى تركتها وسافرت ، والصبي الصغير ذو النظرة العميقة المتأملة فى المقلتين السوداويين . كان الهواء رقيقاً ، يعبث بالوجوه ، والأعناق بأصابعه الخادثة المريجة ، والقمر



تایلاند : ( بانجسوك ) ، الركعا والانسان الذي يجرها

المستدير معلق في السماء . يسبح كالكرة الفضية . وانعسي الصغير يجلس في المقعد العالي بجوار السائق يسأل عن الحصان : كيف يأكل ؟ وكيف ينام ؟ كيف يستطيع أن يجري هكذا بدون أن ينعب ؟ والرجل العجوز يرد عليه بلغة ناسحل المميزة . تحمل في ضياها عبء السنين الضوياءة . والرصى . وتتخلل صوته نبرات من تسعادة إزاء هذا الرزق غير المتوقع . وصهيل الحصان يرتفع في الليل الصامت . وصوت الخوافر المنتظم على الأسفلت . والرجل يقول : « شوف بيصهل إزاي . . فرحان بالقصر بيتغرب . . »

الإنسان « والركشا » والحياة ترحف لتضوى كثيراً من الأشياء . الآن تحولت إلى دراجة بركبها الرجل ونجر وراءها عربة صغيرة يجلس فيها اثنان أو ثلاثة من الركاب . وعضلات الفخذ والساق تبرز من فرط الجهود . تبدو وكأنها ستتنجر . والوجه شاحب من قلة الغذاء فتنددهش كيف يستطيع الجسم النحيل أن يجر كل هذا الحمل الثقيل . الإنسان الذي يتحول إلى حيوان . . الإنسان الذي يظل تحت مستوى الحيوان .

ولكن الحياة ترحف . وتتقدم . أحياناً . . ولكنها تتقدم . ومكان الدراجة التي أصبحت نادرة هي أيضاً نجد الموتوسيكل مزوداً بعربة صغيرة تسع ثلاثة أشخاص . وهذه العربة الصغيرة تمرق عبر شوارع بانجكوك بالمئات . . صغيرة . وعملية . وسريعة . وقادرة على أن تشق طريقها وسط الزحام . مظهر آخر من مظاهر الروح العملية التي يتميز بها هؤلاء القوم . ليسوا مثلنا . . فهم لا يهتمون بالمظاهر كما نهم نحن . ولذلك نجد الشوارع مكتظة بمئات من الدراجات البخارية . يذهبون عليها إلى العمل . أو يركبونها للتنزه . وعلى المقعد الخلفي تجلس الحبيبة أو الزوجة وأحياناً الطفل أيضاً أو تنطلق مسرعة في سباق مثير . يقودها الشبان وقد ارتدوا القبعات المعدنية الملونة يحمون بها رؤوسهم في الحوادث . القبعات الملونة . والقمصان الملونة . والأثواب الملونة . حتى

العربات الصغيرة المثبتة في الموسيكلات وتنتج نغمات مقامات ثنائيات  
تجدها مزركشة يتمثّل برسوم لبيودية مميزة ، ومزودة بمساحات  
من الألوان التي تحطف العين وتولد إحساساً بالتمرح . فالناس هنا  
يحبون الألوان . والألوان تبث الحياة والغبطة في الأشياء .

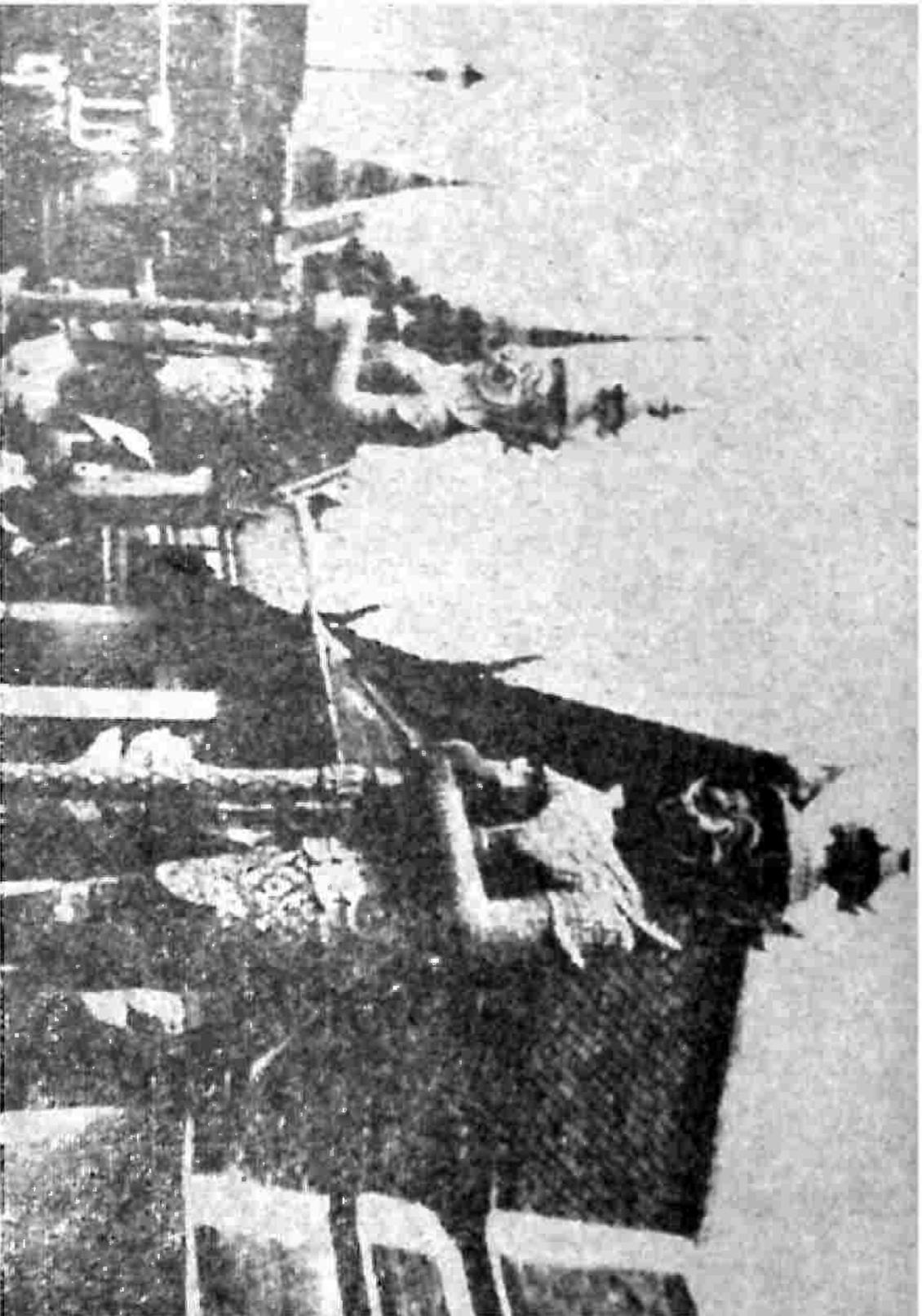
الضبيعة عرفت دائماً بالألوان ؛ ألوان الأشجار والزهور ولسوء  
والشلالات ، وغروب شمس في الأفق .

ألوان الرمادي عنوان لكآبة . والون الأسود رمز الحزن والموت .  
فماذا نعلمق بهذا ؟ هكذا يتفكرون .

### معبد « وات فو »

دخلنا من الباب الرئيسي فقلنا صديق أحمد الحاج :  
هذا معبد " وات فو " البوذي .

نسبت من هواة العمارة . ولا أفهم عنها الكثير . ولكنني لم أفهم  
بعد القدرة على الابتهاش أمام كل شيء جديد . هذه الأبنية الملوّنة  
بقبابها المستديرة المذهبة . والألوان الغنية التي تتنوع وتشابه فرق  
مساحات الجدران . وكلل الحجر المدببة الرفيعة التي ترتفع في رقة  
متناهية كأنها تريد أن تنفذ إلى أسرار السماء . سعى الإنسان إلى أعلى  
يبحث عن أسرار الكون . والأشجار الخضراء ترتعش في هدوء داخل  
الأمنية الواسعة . والحمام يطير ويحط في أطمان تحت أقدام الوافدين  
من كل أرجاء البلاد . من كل أرجاء العالم . وقطاع الحديد المذهبة  
تعمش بها الريح الخفيفة فتصدر زنباً موزيقياً متصلاً . تبحث عنه  
طويلاً قبل أن تدرك مصدره . وخرير المياه في النافورة يثائر رذاذاً  
ملوناً في ضوء الشمس خفيفاً على وجهك وعلى يدك . ليزيل عنها  
آثار الحرارة والإرهاق . . وهذا السلام . السلام العميق الذي يستولى على  
قوادك وعلى قلبك فتحيا في الزمن الطويل . الطويل ، وفي الإحساس



تایلاند : ( بانجسکوک ) ، تماثيل أسطورية في معبد « وات فو »

## بمراقبة الإنسان والإنسانية .

الأرصفت الموسعة خارج المعبد مزدهرة بمئات الناس يحضون في حدوده فوق مربعات الحجر الأبيض . والأسرة تدخل بأركانها : التزوج وكيار السن . والأطفال . فزيارة المعبد مهمة اجتماعية بل متعة اجتماعية ينبغي أن يشارك فيها الجميع . وضقوس ينبغي أن يمثلها الجميع . إنهم يدخلونه وكأنهم يدخلون مكاناً ثمناً وأنسوا به منذ زمن بعيد . كأنهم يدخلون بينهم يتصرفون ببساطة وبلا تكلف يحملون بين أيديهم الزهور . وفروع النبات الأخضر . وأعواد البوتس الأبيض المنفلق على نفسه . والشموع والبيض . وبعض الهدايا البسيطة . الأطفال يمرحون . ولكك تحس أن خطواتهم أبطأ . وحركاتهم أهدأ كأنهم يدركون هيبة المكان ويعملون له حساباً . والناس يسرون أفواجاً بدون صجيج ، أو أصوات عالية . يتحدثون في همس بدون أن يبدو عليهم أنهم يهيسون . وكأن الصوت الخفيض شيء معتاد . ويصعدون الدرجات أمام تماثيل البوذا تجلس بأجسامها المكتنزة في صفوف مستقرة . ويركعون لحظات طويلة . ورءوسهم مخنية . كأنهم يشعرون بالراحة إلى جوار الآلة . ثم يشعلون الشموع الرفيعة . ويضعون الزهور . والنباتات . والبيض . والهدايا في أكوام منسقة عند أقدام التماثيل . والأطفال يفعلون ما يفعل الكبار . ثم يتصرفون بمجموعات صغيرة ، بعضهم إلى داخل المعبد حيث يجلسون دوائر صغيرة فوق البساط المقروش على الأرض ، وكأنهم في إحدى الحدائق ، والبعض الآخر إلى الفناء الخارجي . يتنزهون تحت السماء المفتوحة . وبين الحين والآخر تسمع صوت الأجراس الصغيرة تهتز في الريح : أو غناء عصفور يذكرك بالليل .

لم تنح لي الفرصة لأعرف الكثير عن ديانتهم . ولكنني أحسست أنهم يتعاملون مع آلهتهم وكأنهم جزء من الحياة العادية . فلا توجد فواصل بينهم وبين الناس . وفيما بعد عندما سألت أحد أصدقائي عن

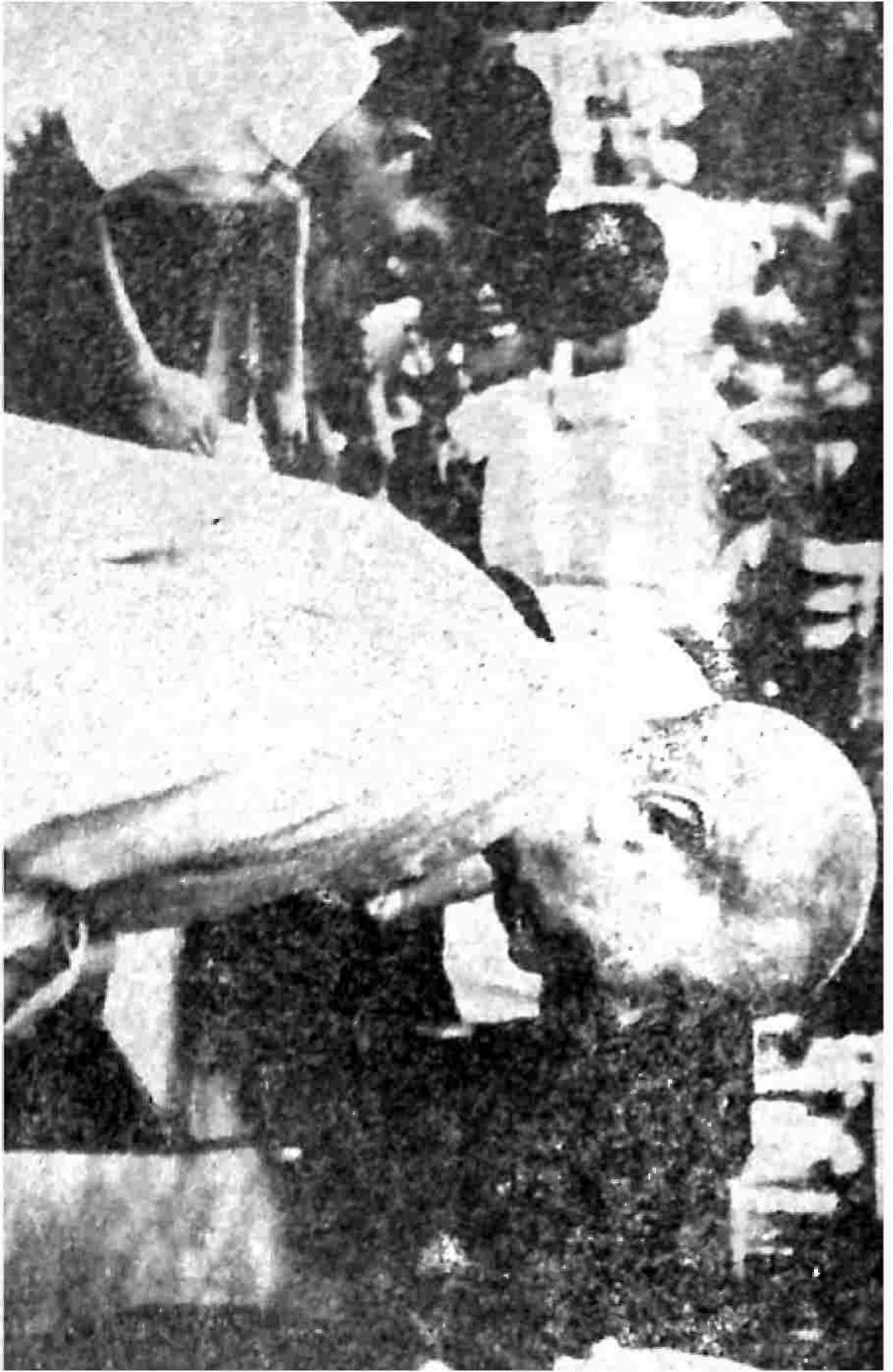
رأيه في أبرز سمات الديانة البوذية قال :

« إنه دين حياة . يضب من الإنسان أن يقيم جنته . أن يقيم سعادته على الأرض وأن تكون روحه صافية . لأن ضميره صاف .

ولكنني رأيت شيئاً آخر . كنت سأرهِ كثيراً فيما بعد . هو ذلك القرب من الطبيعة والحُب العميق لها . فهم يأتون إلى معايلهم حاملين الزهور . وأعواد النبات الأخضر . والورود . والبيض المنون . وعندما تخترق الشوارع تجد في كل البيوت أصص الورد . والشجيرات الخضراء . في الشرفات . والنوافذ . وتلج إلى جوارها أقمصاً مزركشة صبت أسلاكها في رسومات بديعة تقفز وراءها أو تصل منها . أجسام العصافير من مختلف الأنواع والألوان . وأحواض الزجاج تسبح فيها الأسماك الذهبية وعندما يذهبون إلى السوق يتعاون الثواكه والمأكولات . لا بد أن تجد معهم في الوقت نفسه سبحة من الأزهار . أو كيساً من النايلون مملوءاً بالمياه تحماتي من داخلها عيون الأسماك بتلك النظرة الثابتة الغبية التي لا تتغير أبداً . أو قنصاً صغيراً يقفز في داخل عصفور أو اثنان . هكذا هم . لا يتصلون عن حياة النبات أو الحيوان . عن الطبيعة . حتى في قلب المدينة . حيث تحبل الأحجار مكان لأشجار .

### سوق الأحد

وعن في طريقنا إلى خارج المعبد كدنا نصطدم بثلاثة أفراد يرتدون ملابس رمادية طويلة . شيء ما في وجوههم ذكرني بالأغوات الذين كانوا يتولون حراسة الهرم . في قصور الملوك والسلطين . فنحنس أنهم في منتصف الطريق بين الأنثى والرجل . رؤوسهم حلقة تماماً أزيل منها كل أثر للشعر بالموسى . تلمت إلى مرافقي وسألته « من هؤلاء ؟ » قال « راهبات بوذيات » انثابتي قشعريرة خفيفة . لا أدري لماذا شعرت إزاءهن بتوع من الثفور وكأني أمام إنسان سحنت فيه إنسانته :



تاياتلاند : نموزج من الرهبنة البوذية

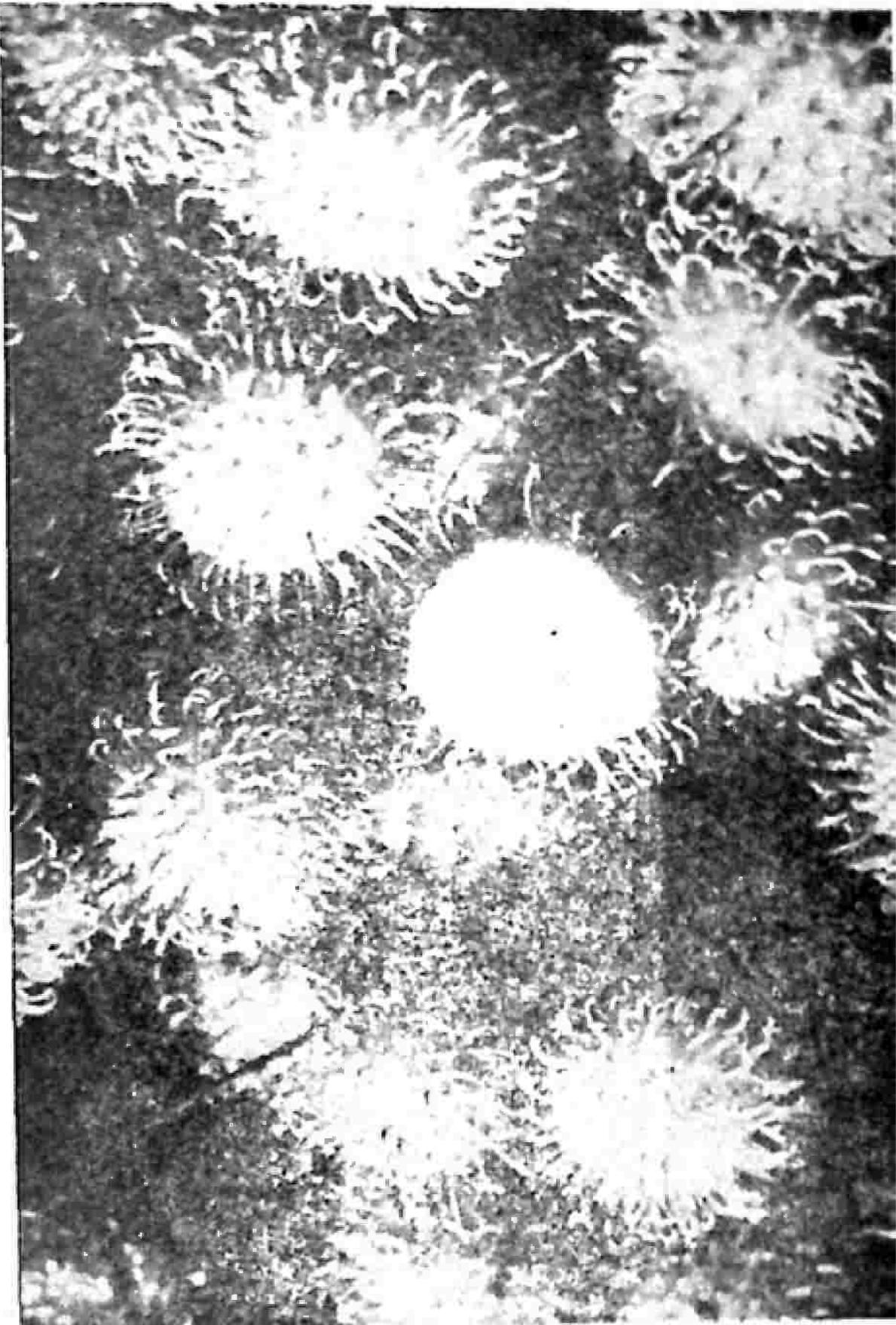
فأصبح شيئاً آخر . انتهت منه الروح . . مجرد جسد يتحرك .  
 نخرجنا إلى الميدان لتفسيح يسيل منا لعرق الغزير من شدة الحرارة .  
 أثار السائق إلى مساحة واسعة من الحشيش الأخضر تمتد عبر الميدان .  
 ولا تكاد ترى حدودها بالعين المجردة . شيء يشبه معب الكرة الضخم .  
 فرفيها نصبت أسقف صغيرة متعددة من القماش الخشن الملون أو من  
 تيل القنوع . مثل صوان مقام بغير نظام . وقد ثبتت هذه الخيام العارية  
 الخالية من البعدان بأعمدة من الخشب . ومئات الخبال . وبين الخيام  
 ممرات ضيقة تفسح الطريق لمرور طوابير لا تنقطع من الرجال والنساء  
 والأطفال زحفوا في أعداد تصل إلى عشرات الآلاف يسرون في هدوء  
 ويتحدثون بهذا الخمس الغريب الذي لا تكاد تسمع كلماته ، فتتجمع  
 أصوات هذا الخمس المنخفض في طنين كطين خلية النحل . والناس  
 يتوقنون أمام كل خيمة ليتطلعوا إلى أكوام البضائع المرصوفة بعناية  
 يشرون من الرجال والنساء والأطفال الجائسين على الأرض ، أو على  
 مقامات صغيرة . السلعة التي يريدونها . أو يكتفون بمشاهدتها . ثم  
 يواصلون سيرهم . وخلال هذه الجموع الزاحمة بدون توقف يمر الباعة  
 الجائلون ، يدفعون أمامهم عربات صغيرة ، أو يحملون على أكتافهم  
 الصواني أو عصا ضويدة تتدلى من جانبيها «الجرادل» المملوءة بأنواع مختلفة  
 من الشراب الملون .

تسللنا بصعوبة بين الأجسام الملتصقة . تتحرك ، ثم تتوقف .  
 ثم تتحرك من جديد . لم أر مثل هذا الزحام في حياتي من قبل : زحام  
 يتوقف مباريات الكرة في نادي الزمالك والأهلي أو المواكب الشعبية  
 في أيام الأعياد . شهر آدمي متأسك يتدفق بهدوء كياه النيل . ولكن  
 برغم الحرارة ، وبرغم الزحام وبرغم العرق المهر على الوجوه والأجسام ،  
 لا تسمع صوتاً يرتفع بالصياح ، أو مناقشة حادة ، أو أناساً يتشاجرون  
 ولا ترى أحداً يدفع الآخرين ليشق طريقاً عبر الأجسام المتماسكة

أو يستخدم مرفقيه ليفتح ثغرة بين السائرين ، أو يدوس على قدم من فرط الاستعجال . هذا اخذوه . وهذه البرقة في معاملة الناس : وهذا الحرص على عدم إزعاج الآخرين أو مضايقتهم ، شهادته ضوان الأسبوع وأنا أتقل بين أطراف المدينة الواسعة . في أشد الشوارع والأماكن زحاماً لم أر طوال إقامتي في هناك مشجرة واحدة ، ولم أسمع أصواتاً ترتفع في مناقشة حادة ، أو حتى في شيء من العصبية . ولم أحس أن أحداً يتحدث على أحد . لم أهتم إلى أسباب هذه الظاهرة التي تثير التأمل وبخاصة إذا قارنتها بما يحدث في بلادنا . هل هو طبع الشعب ؟ هل هي الحضارة ؟ أو ماذا ؟ أسئلة ليس لها جواب . فالحضارة المصرية أعرق وأكثر أصالة والشعب المصري تعود الصبر والخضوع من آلاف السنين ومع ذلك تشعر أن الحياة في القاهرة أصبحت كالسباق الذي لا تحكمه أية قواعد . فالأمهر هو الذي يركب الأتوبيس الأول حتى إذا داس على النساء والأطفال في سبيل ذلك ، وهو الذي يفتح الطريق بسيارته من اليمين أو اليسار أو حتى فوق الرصيف طالما أنه سير قبل غيره ، وهو الذي يستطيع أن يحطم نظام الطابور ويحصل على تذكرة سينا قبل غيره وهو الذي يعلو صوته فوق الآخرين ، ويستعد للشجار في أية لحظة . ظواهر تنمو وتتفاقم كل يوم ، كالغابة يتسابق فيها الناس ، يحاول فيها كل منهم أن ينقض على حقوق الآخرين ، ويضطار فيها كل شخص أن يكون على حذر حتى يدافع عن حتمه بالأظفار والأسنان .

هذا الشعور ما انتابني قطاً هناك . قد يكون ذلك لأن الأجنبي لا يلاحظ أشياء كثيرة وبخاصة إذا كانت زيارته قصيرة . ولكن حياة الشارع ليست كحياة المكاتب والبيوت . كل شيء فيها يتم علناً لا تحجبه عن الرؤية أستار .

سرنا مع السائرين نشهد هذا المنظر الفريد من نوعه . كل شيء يمكن أن يتصوره الإنسان يباع هنا . مئات ومئات من مختلف أنواع



تایلاند : الراءجوقان . فا كبة منمشة نشاطة بنخلاف من شعيرات حمراء

الأضمة . كنت أحاول أن أعرف بعضها من صديق نسائي . ولكن أغلبها ضال مجهولاً بالنسبة لي . ثموز الأصغر يصل حجمه إلى ثلاثة أضعاف الموز في بلادنا تضع الأصبع نظري الأبيض في فمك فينساب اللعاب المديد فوق لسانك . وتستشق رائحته المعطرة الخفيفة والنفذة في الوقت نفسه . و « الرامبوتات » يرخاوي الشكل . يحيط به غلاف خارجي . تختلف فيه درجات من الألوان الخضراء والخضراء . وتغضبه شعيرات كثيفة . فلا ينحصر لك على بان بان هذه الثمرة مغربية يمكن أن تؤكل . ولكن إذا ما أزلت هذا الغلاف بقصع دائري من السكرين وجدت في داخله نواة في حجم بيض الدجاج . لونها أبيض شفاف ، ويسيل منها شراب بارد منعش عندما تمضمض فيها بهسنانك . و « المانجوستين » قشره الخارجية رقيقة جافة بشية المون . وانما كهيئة طعمها مزيج من القشطة والمانجو . لونها أبيض ولكنها مقسمة إلى فصص . واليدوسى جلده الخارجى رفيع مثل الورق . ونصوصه الداخلية لونها البرتقالي عميق . عندما تنكشفت أمامك تبهرك . وتشعر أنك تريد أن تحتفظ بها وتتأملها طويلاً قبل أن تضعها في فمك . فإذا ما أكلتها تذوب وكأنها مجرد سائل متجمد . خال من الألياف والأنسجة والبذور . والأناناس الضخم . كتلة من اللحم المياسك تسيل منه كميات من الشراب . تختلط فيه الحلاوة بالمرارة التي لا تكاد تشير بوجودها . يبيعون لك الثمرة بأكملها أو قطعاً يصنعون منها أشكالاً هندسية مختلفة « واليابايا » تشبه الشمام . ولكنها مستطيلة . ذات حجم أصغر . ولونها من الداخل أحمر فاتح ، والبطيخ ، والبرتقال . و « الدوراك » يتناولون عنه إنه يحول الجسم إلى كتلة مشتعلة إذا تناولت معه مشروباً مسكراً . وعشرات من الفواكه الأخرى التي لم أعد أتذكر اسمها ولا تفاصيلها . أكوام فوق أكوام . فوق أكوام تتخلل المساحة الضخمة من أولها إلى آخرها . وأنواع



تايلاند : فاكهة « البابايا » كالشمام ولكنها حمراء اللون  
وتنمو فوق الشجر .

الخضراوات التي يستحيل أن تحصر عندها أو ألوانها التزاهية . والأسماك الصغيرة ؛ والكبيرة ، الرمادية . والسوداء . والمنونة ؛ الشبيهة والمنمحة . والمشوية ، والمطبوخة في الأواني أو على البخار في قطع كبيرة أو صغيرة . جافة أو غارقة في الثيبارات والصلصة التي تحرق اللسان بمجرد التمس . وأنواع اللحم المذبوح . والنمقد ، المنعقة في السقف في شرائح ضخمة . أو المرصوصة على الصواني في قطع صغيرة . أو في أسياخ من الحديد والبرص المذهب فوق النار . أو في شكل كرات مستديرة كالكفتة . والخايريات المسكرة ؛ وغير المسكرة ذات لفافة نون ولفافة طمر . والثواكه المملحة والمخللات .

ووسط كل هذا أقباص من مختلف الأحجام . والأشكال . وضعت فيها النقطط ، والكلاب . والأرانب . والدجاج . والعصافير وأحواض من الزجاج تسبح داخلها أسماك التريئة المدونة .

قلت لصديقي السائق :

« كيف لا يتود الناس بين كل هذه الأشياء ؟ »

لمعت أسنانه البيضاء في الوجه الأسمر :

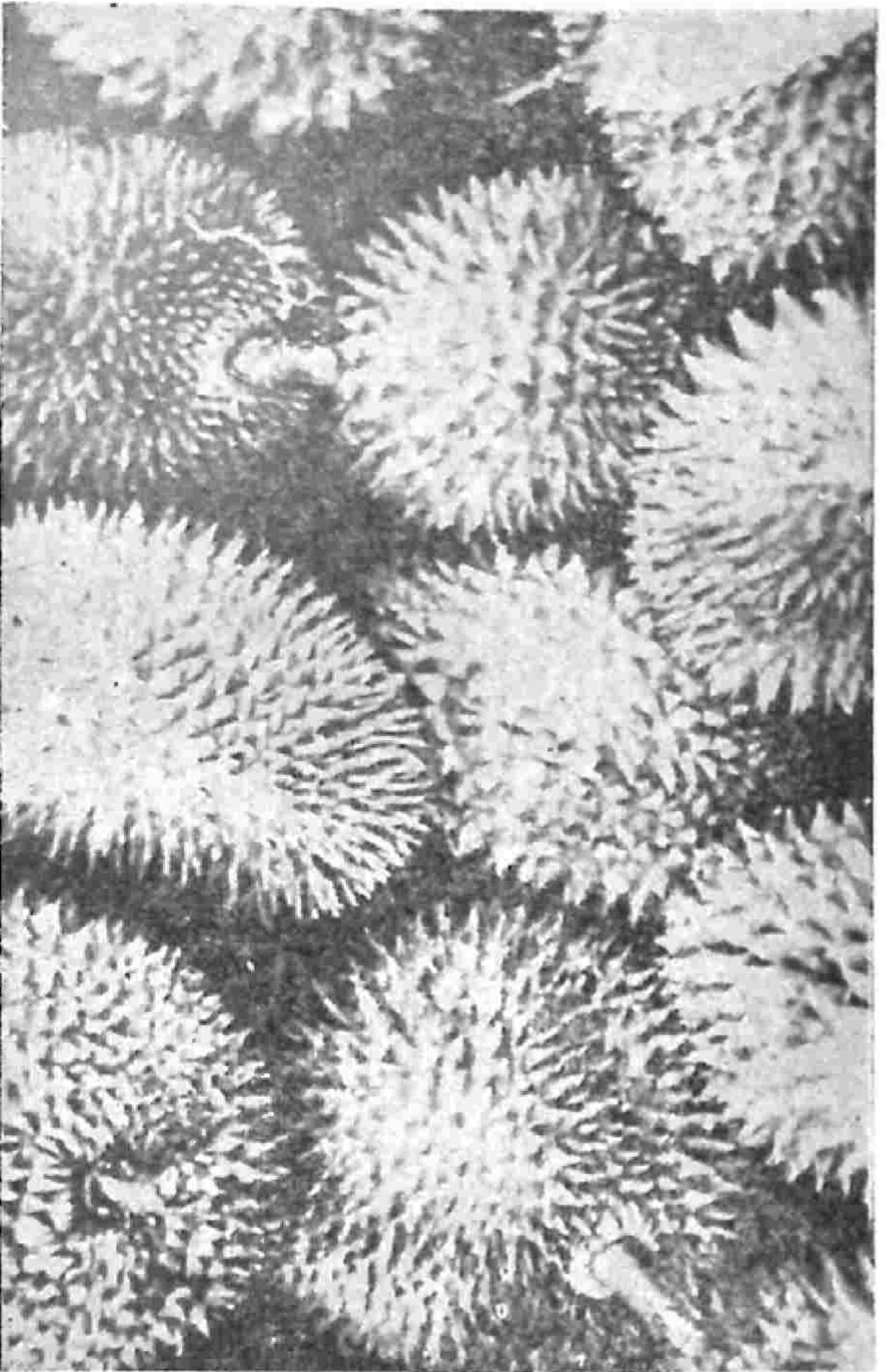
« لكل منطقة من البلاد طعامها . والناس يحضرون إلى سوق الأحد يسلمونهم من كل المناطق . هيا نبتاع بعض الثواكه » .

ملأنا أكياساً من الورق بالموز والرامبوتان والمانجوستين والأناناس واليوسفي . هممت بدفع الحساب ولكنه خاطب الفتاة النحيلة الخالسة على الأرض فأبى بإصرار أن تأخذ مني شيئاً . مد يده إلى جيبه وأخرج منها ورقة من فئة الخمسين « باطاً » أعادت إليه الباقي ثم قال :

« إلى أين ؟ »

قلت :

« إلى النهر » .



فاكهة الدوران : تحمل الجسم يشتمل إذا ما أكلتها وشربت معها شرابا كحوليا

سرنا بخطوات بطيئة عبر الميدان حيث تمف السيارة .  
قال :

أتريد أن تأكل بعض الفاكهة ؟

قلت :

لا . ليس الآن .

وضع الأكياس في الخقيبة الخلفية ومعها آلة التصوير .  
سألته :

لماذا لا تترك الأشياء على المنعد الخلفي ؟

قال :

الناس هنا فقراء وأبواب السيارة لا تغلق جيداً .

دأرت بنا السيارة حول الميدان . أقيت نظرة أخيرة على الكنتنة البشرية المتزاحمة . تبدو وكأنها لا تريد أن تنفرق « إنهم يأتون من كل مناطق » . الطبيعة هنا سخية . خصبة . تعطي الكثير . كم هو جميل ذلك التنوع في الحياة . تذكرت . انسوبر ماركت « في شارع سيلوم . كل شيء نظيف صحي منظم . مغلف في أكياس من النيلون . . . . . موجد . مسعر . أشياء مفيدة . . . فمن يستطيع أن يعترض عليها ؟ لا وقت للتفكير . أو الحديث . أو التسكع . أو التفرجة . العجدة ينبغي أن تدور . والأشياء ينبغي أن تتوحد . فالآلة ذات قوائين والإنتاج الواسع يلغي التنوع . ويحدد المقاييس . والزمن . تعطان من الحياة ولكن أيها أفضل ؟ سؤال يعرضنا في كل لحظة . هل يمكن أن نلحق بعيرنا بدون أن نفقد مزايا التخلف ؟ هل يمكن أن يكسب الإنسان في سباق التقدم بدون أن يفقد نفسه في السباق ؟ هل يمكن أن ندرك قيمة الزمن بدون أن نفقد الاستمتاع به ؟ أسئلة تبحث عن إجابة ذات قأين إجاب ؟ . . في الشرق أم في الغرب ؟ أم في الاثنين معاً ؟

## الناس يدفعون الثمن !

سألت السائق :

« أمتزوج أنت ؟ »

قال : « نعم . وعندى أربعة من الأولاد »

« أين هم . في المدرسة ؟ »

« الكبير يعمل ميكانيكى سيارات . والثلاثة الآخرون . صبي

وبنتان . في المدرسة .

ابنى الكبير كان يريد أن يذهب إلى الجامعة ولكنه لم يستطع » .

« لماذا ؟ »

« الجامعة هنا لأولاد الأغنياء . فإحصاريف السنوية تصل إلى

٣٠.٠٠٠ باط ( ١٥٠٠ دولار ) . منها ١٠.٠٠٠ باط ( ٥٠٠ دولار )

تدفع مقدماً » .

« ولتدارس ؟ »

« لأولاد الأغنياء أيضاً »

« ماذا تفعل إذن ؟ »

« أصرف عليهم نصف دخلى . عندما قامت حرب كوريا أعلنت

الحكومة أن من يتطوع للحرب هناك ضد كوريا الشمالية ستولى تعميم

أولاد، بالحجان . فتطوعت . ولكن عندما عدت إلى الوطن توقفوا عن دفع

هذه المعونة . لم يكن لدى سوى طفل واحد آنذاك . فاستطعت أن أتحمّل

مصاريفه . ولكن الحمل الآن أصبح ثقيلاً » .

« كيف تنصرف إذن ؟ »

ابتسم ابتسامة غامضة وقال :

« مدينة بانجكوك مدينة كبيرة . أتعم أن بها ٥,٠٠٠,٠٠٠ نسمة

الآن ؟ مدينة يلهو فيها الأغنياء ، والأمريكان ، وسبل العيش كثيرة » .

نضق أنكنمات الأخيرة بمرارة .

ومن أين يأتي الأمر يكان ؟

« من القواعد العسكرية . البلاد مغطاة بالقواعد العسكرية » .  
« من تخافون ؟ » .

« أتسألني أنا؟ لاشيء . لاشيء يخيفني . ولكن الجرائد تقول للناس إنه

لا بد من أن توقف الغزو الشيوعي في فيتنام . وإلا احتلنا الشيوعيون .

ولذلك لا بد من القواعد . ولا بد من الطائرات . والمدافع . والجيوش :

ولا بد من الضرائب لدفع الثمن .

ألم تر بنفسك تكاليف الغذاء في بانجكوك ؟ »

« ولكنني رأيت غنى فاحشاً أيضاً » .

هذه بانجكوك . الفنادق . المطاعم . والجواهر . والحريزير :

وأماكن اللهو . وعلى الأطراف الجموع الزاحمة من الريف : بالآلاف

يسكنون مدن الصفيح » .

تلقت إلى كأنه يريد أن يرى أثر كلماته . هزرت رأسي .

وساد الصمت لحظات كأن كلاً منا غارق في التفكير . ثم سألتني :

« وأنتم ماذا تفعلون ؟ »

قلت :

« عندنا مشكلة إسرائيل . هل سمعت عنها ؟ »

« نعم . يقولون إن العرب يريدون اقتراسها » .

« من يقول هذا ؟ »

« الصحف والإذاعات » .

« وما رأيك ؟ »

« لا أعرف . إننا لا نسمع وجهة نظركم » .

إسرائيل هي التي اعتدت علينا في ١٩٥٦ . ١٩٦٧ وهي تحتل  
أراضينا الآن . .

« قالوا إنكم كنتم البادئين . .

« لم يحدث . إسرائيل عندنا مثل القواعد العسكرية عندكم .  
سهم مصوب إلينا . إلى شعوب المنطقة .

### قنوات الحياة :

توقفت السيارة فجأة . نظرت أمامي . النهر العريض يتدفق في عتقوان  
متورد . نحس فيه أنه متوحش . طليق . لم تمتد إليه يد إنسان لتتحكم  
في مساره بالأبواب . والسدود . والقنوات . مياهه الحمراء تتموج تحت  
لسعات الريح . وعلى الجانبين تلك الحضرة الداكنة العميقة التي تتميز  
بها هذه المناطق . وتلك الأشجار والأحراش الكثيفة . التي تغطي  
كل شبر من الأرض . وترتفع في السماء حاملة ثمار جوز الهند . والموز .  
والأناناس . تتأيل مع الريح . وتصنع شريطين من الخضار ينحصر بينهما  
النهر الأحمر .

نزلت من السيارة . وأغلق السائق الباب وتقدم إلى جوارى . ملأت  
رئتي بأنفاس عميقة وقلت :

« النهر جميل » .

قال :

« هيا بنا » .

سرنا فوق الرصيف بجوار حاجز من الحديد أقيم على امتداد هذا  
الجزء من النهر . هنا الحركة أبطأ . والشوارع أقل زحاماً . وعربات الباعة  
الجائلين الملونة منتشرة في كل مكان . نحس أنك في مدينة صغيرة  
أو في ضاحية . الناس يروحون ويحيئون وهم يحملون الأشياء التي ابتاعوها

من نسوق أو من اخونيت . توجهنا إلى مبنى خشبي عبارة عن سقف ،  
وعدد كبير من المتاعد . يجلس عليها الناس ينتظرون . لبناء يتمود إلى  
سهم متعرج ينحدر إلى أسفل . وفوق المياه الخبيطة . بالمعدية كانت تقف  
عشرات الزوارق نضوية الزخيمة تتأرجح فوق أمواج النهر في خفة مثل  
قضع من الثمين .

لوح السائق إلى أحد المراكبية . كان يقف منتصباً في زورقه ،  
بتطلع إلى أعلى باحثاً عن الركاب . وجه أسمر مستدير لفتحته الشمس ،  
وعينان تلمعان كقضع الفحم الأسود . وجسد قوي ممتلئ يحيط به سروال  
ضيق . وقميص أبيض مطرز بألوان زاهية .

سمعت بضع كلمات كالطلقات المتبادلة . ومن بينها كلمة  
« باط » نحت ابتسامة المراكبي البيضاء وذراعه القوية تدعوني إلى النزول .  
قال السائق :

سندهب معه في رحلة لمدة ساعتين . وسندفع له ٢٥ باطاً .  
أومأت برأسي موافقاً . الرصيف تحيط به حركة دائبة من الزوارق ،  
تدطلق مسرعة عبر النهر . وهي تحمل صفتاً طويلاً من الناس ، يجلسون  
على المقاعد في خط مستقيم حتى لا تنقلب ، أو أكواماً من الحضرارات  
والقواكه .

جلت مولياً وجهي إلى الأمام . أخذ السائق مكانه الخلفي ، واستقر  
المراكبي الشاب عند مؤخرة الزورق . بسند نفسه على الدفة بجوار  
المحرك .

انطلق صوت الموتور كالرعد ، وانساب الزورق فوق المياه الحمراء .  
ثم انطلق بسرعة متزايدة ترتفع مقدمته المدببة في الهواء . وعلى بخانين  
جدار عال من الرذاذ الأبيض ، تسقط قطراته المنعشة على وجوهنا  
وأجسامنا . رأيت غابة الأشجار والأحراش الخضراء على الضفاف الأخرى  
تقرب منا بسرعة ، وبيوتاً من خشب « التيك » السميك النبي المون مرفوعة

فوق الأعمدة العالية ، كالسيفان العملاقة : أقدامها غارقة في المياه .  
أحسست بالزورق يبطئ ، ثم انحنى فجأة ليندفع عبر فجوة مفتوحة  
بين صفتين من البيوت الخشبية . هداً النبض المنتظم ، وانزلت هادئاً فوق  
مياه قناة ضيقة متعرجة . تنفذ إلى أعماق الغابة .

البيوت الخشبية تمتد في صفتين متصلين على الجانبيين . السلام تنحدر  
من الباب الأمامي حتى المياه وحول كل بيت حديقة صغيرة تتدرج إلى  
حافة القناة . ويتوسطها ممر ضيق من الطين يقود إلى فجوة طويلة يبيت  
فيها زورق فارغ الطول . كالسيارة في جراج البيت . فالتقنات هنا هي  
الشوارع ، والزورق هي وسيلة الانتقال الوحيدة لكل أسرة .

النساء يظانن من النواقد ، أو تراهن داخل الحجر ، يعددن الطعام  
أو يمكن الملابس ، أو يستغرquen في الحديث ، أو يغسلن القمصان  
المالونة بالصابون في مياه القناة ، أو يغتسلن . والرجال القليلون تبدو  
أجسادهم قوية مختولة العضلات ، يزرعون في الحديقة ، أو يصلحون  
زوارقهم ، أو يستحسون تحت أعمدة البيوت ، وكلهم لا يرتدون إلا السروال  
التمصير . وبقية أجسامهم عارية . فاخرارة خانقة رطبة ، ويصعب  
تحملها ، برغم سقف الأشجار الكثيفة التي تحمي من الشمس وتخفي  
النساء بأوراقها وفروعها المتشابكة . والأطفال يمرحون بأقدامهم في الطين ،  
ويجرون هنا وهناك ، تسمع أصوات ضحكاتهم ، وبكائهم ، وأجسامهم  
وهي ترمى في المياه . تحس وأنت تسير بالطبيعة ، وبالحرية ، وبأن  
الاختلاط جزء عادي من الحياة اليومية :

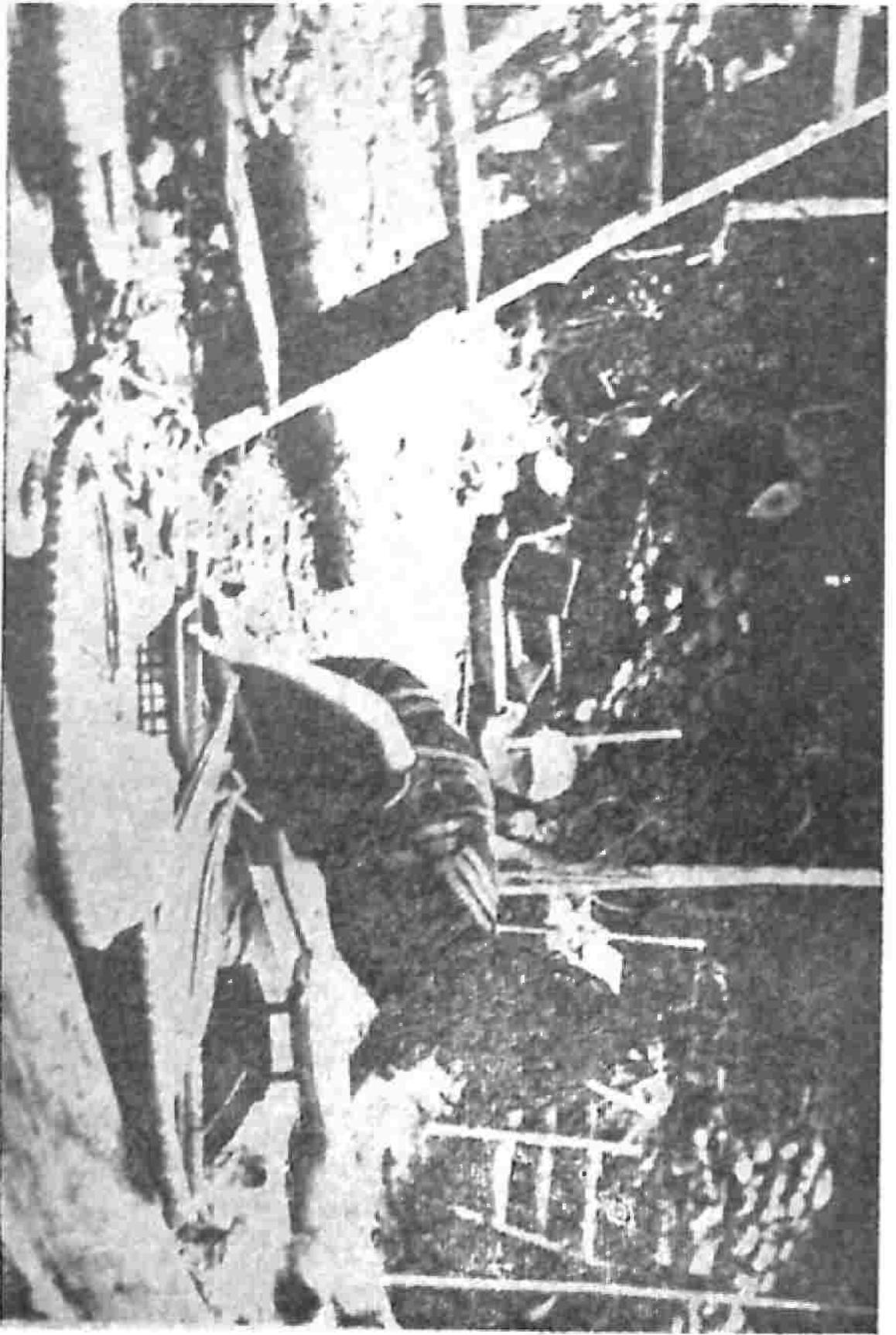
قلت للسائق :

« تبدو صحتهم جيدة ، وبيوتهم نظيفة » .

قال :

« نعم ، ظروفهم أحسن من غيرهم » .

« لماذا ؟ »



بانبجكمك : بابع المخرارات على التورق

« هنا منطقة زراعة القنواكه والخضراوات . وهي قريبة من بانجكوك .  
يحملون إليها منتجاتهم طوال الأسبوع وبالذات يوم الأحد . فتجد النهر  
وقد غطته مئات الزوارق . هذا هو السوق العام . »  
« ولكن هذه القنوات . ألا تحمل الأمواض ؟ لم أر صنابير نلسياء  
أو أسلاكاً للكهرباء . »

« لا توجد مياه نقية ولا كهرباء . والبهوض منتشر يحمل معه الحمى . »  
« الملائيا ؟ »

« نعم ، هي هذه . تحصد بالمئات أحياناً . »

« والأطفال هل يعملون ؟ »

« أغابهم يعملون ، وقلة تذهب إلى المدارس . »

« وهل ينجب الناس أطفالاً كثيرين ؟ »

« نعم . »

« مثل أجدادهم ؟ »

« هرش رأسه كأنه يفكر . »

« لا . . . أقل . »

« لماذا ؟ »

« لا أعرف . »

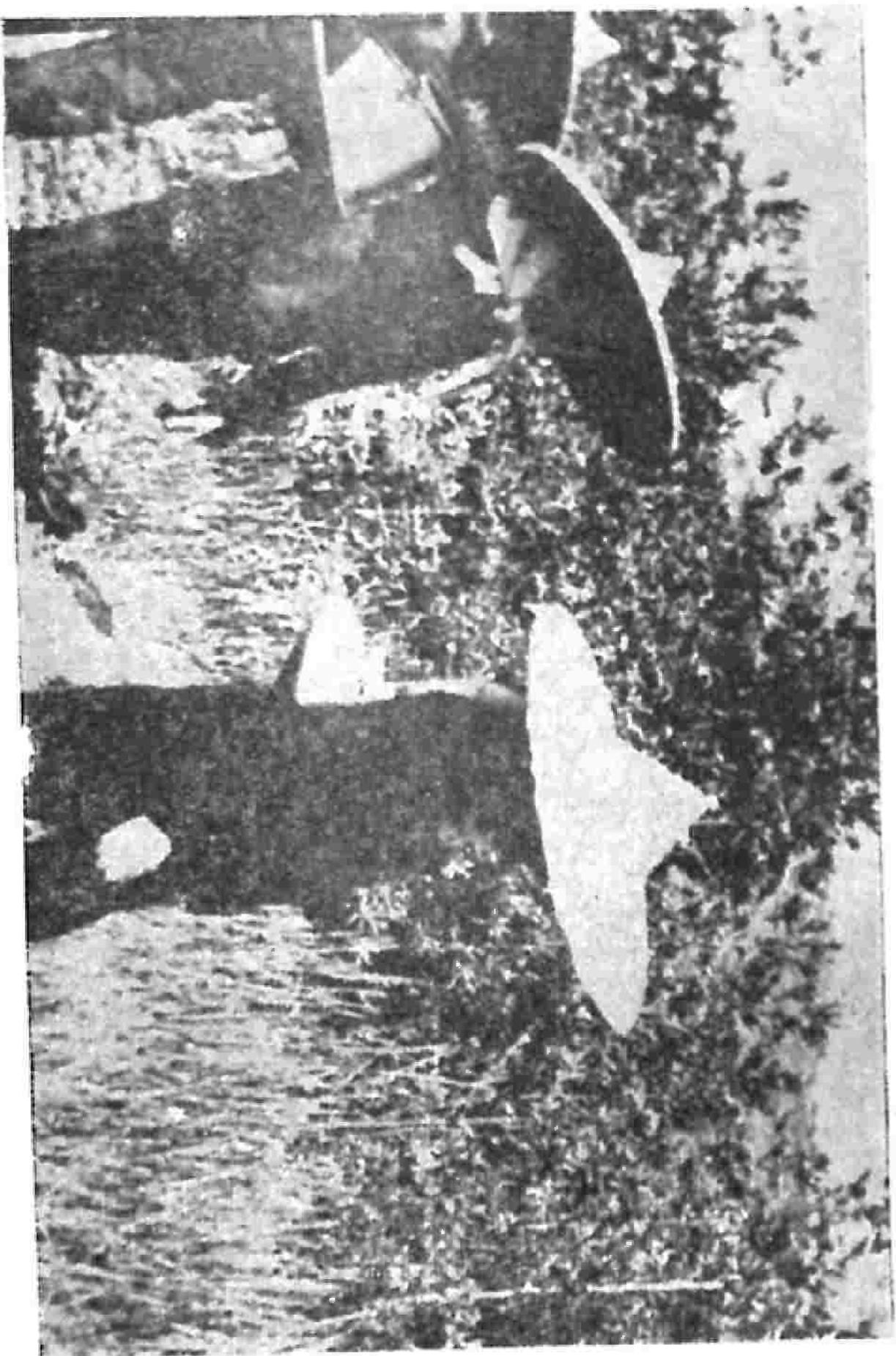
كل شيء هنا يتم فوق سطح القناة . الحلاق يقود زورقه من بيت  
إلى بيت . ومن زبون إلى زبون . وبائع الحساء يضع وعاء فوق موقد يعمل  
بالمزوت ويصب السائل الأصفر الساخن بمغرفة ضخمة في الأطباق  
المسدودة عبر النوافذ ، أو عند أسفل السلم . والميكانيكي يتجوز بزورقه  
عبر القناة يقف هنا أو هناك ليصلح محركاً أصابه عطب . والنساء  
يتزاورن . أو يذهبن إلى السوق ، يدفعن زوارقهن بالمقذاف أو الموتور ،  
ويحركن الدفة في حلق بلع . حتى الأطفال يجيدون التنقل في الزوارق  
الصغيرة الرشيفة .

قلت لصبي سائق :  
 . والناسق التفتيرة أين هي ؟  
 في الريف " الخوي " حيث يزرعون الأرز .  
 وهل تعرفها ؟  
 نعم .  
 كيف وأنت ابن المدينة ؟  
 جئت أصلاً من هناك . وفي أقارب ما زالوا يعيشون على زراعة  
 الأرز .  
 هل يمكن أن نذهب إليهم ؟  
 نعم .  
 متى ؟  
 بعد الغضر .

## الأرز المرّ

سرباً على الطريق الضيق الترابي بين الحقول . والشمس تنحدر  
 بالتدرج في السماء . وعلى الطريق كانت تتحرك جماعات صغيرة  
 متفرقة من الملاحين . حركة بطيئة فيها إعياء ، تشعر أنها بغير هدف .  
 كأنهم يفتنون الساعات الباقية من النهار . شيء ما في الجو يشعر بأن  
 الحياة تتوقف . تنهي . ربما لصمت . أو الأجساد الشاحبة المنهالكة .  
 أو البيوت الخشبية الخربة تغرس سيقاناً رفيعة في المياد الآسنة ، أو الناس  
 يقفون على أطراف الحقول يحملون في الأفق بحثاً عن شيء مفقود ،  
 أو الأذرع والأيدي التي لا تتحرك ساكناً . وكأنها تعودت البطالة  
 منذ زمن بعيد .

وقفت أتأمل المساحات الممتدة أمامي ، مساحات الأعواد الخفاقة ،  
 المستسلمة ، الساكنة . يتحول لونها بالتدرج من الأخضر الشاحب ،



تايلاند: زارعات الأرز ... المر

إلى الأصغر إلى نون يشبه حطب القطن . وكأن الحياة تذوي فيها بالتدريج .  
ومساحات أخرى عارية تكشف عن أرض حمراء اللون يغطيها شيء  
كالرِيم الأبيض .

« ما هذا يا أحمد ؟ »

« الأرز » .

« الأرز ؟ أين الأرز ؟ الأرز في بلادنا كاليساط الأخضر » .

« نقت إليه . كان يقف كالمثال ينظر إلى شيء » .

« هذا هو الأرز عندما تنقطع الأمطار » .

« وما هو موسم الأمطار ؟ »

« نحن في موسم الأمطار الآن . هل رأيت مطراً ؟ »

« لا ، ولا قطرة » .

« لم تر قطرة مطر طوال يوليو وأغسطس » .

« ألا يوجد نظام نلري سوى المطر ؟ »

« لا » .

« وعندما ينقطع المطر ماذا تفعلون ؟ »

« تجف الحقول ، ويجوع الناس . فالأرز هو المحصول الوحيد في أغلب

المناطق » .

« ولماذا لا تعمل مشاريع لدرى ؟ هذا النهر العريض المتدفق الذى رأيت » ،

« ما فائدته ؟ » صمت لحظة كأنه يبحث عن الإجابة .

« يقولون إنه لا توجد أموال لذلك » .

في السكون سمعت صوت طفل صغير ينادى . تحت جسداً صغيراً

عنى ساقين كهودين من الكبريت ، وأسناناً تبرز فى ابتسامة مفرعة والوجه

عظام تحت الجلد .

لوحت الأم الشابة نحو الطفل وأطلت من عينيها نظرة هادئة تضىء

الملامح الرقيقة . كانت تحمل فى يديها طبقاً من سائل أبيض اللون وملعقة

صغيرة . تقرب منها الطفل فأخذت تضعه بالسعة . متية ناحيتنا  
بنظرة متائلة بين الحين والآخر .

قلت :

« ما الذى تعطيه الجنفل ؟ »

« حساء الأرز - أرز مدوق فى قبيل من الماء . »

« فقط ؟ »

« فقط . »

أحسست برغبة شديدة فى أن أتعد عن هذا المكان . أخذت أمشى  
بخطوات مسرعة ناحية الطريق لعاء حيث كانت تمنف السيارة .

سمعته يلهث ورأى .

« لماذا تجرى هكذا ؟ »

« انوقت متأخر ، وأمامنا أشياء أخرى أريد أن أراها . »

« هل تزور أقاربى ؟ لهم على بعد عشرة كيلومترات من هنا . »

« لا . »

« لماذا ؟ سيرحبون بك . »

« أليسوا من زراع الأرز ؟ »

« نعم . »

« هيا بنا نذهب إلى مكان آخر . »

### تيملاندا

جلسنا على المقعد الخشبى وقد انتابنى إرهاق شديد . الجزء الأخير  
من جولتنا أدخل على شعوراً عميقاً بالملل . كنت أتوقع أن يحدث  
ما حدث ، فقد أدركت منذ أول وهلة أن « تيملاندا » هذه مصنوعة  
للسياح ، ولكن درجة الملل فاقت ما كنت أتوقعه . حديقة مرامية الأطراف  
لا يميزها جمال الزهور . أو براعة التنسيق ، أو أى شىء ، ومجموعة  
متنافة من المشاهد والألعاب ، والرقصات يؤديها طلبة وطالبات المدرسة

المنشأة خصيصاً لهذا الغرض . أي لغرض تسببتي ندى من ثجده  
نشئت حديقة سيلاند .

مرزناً يجمع صغير من نرجان بملايس التلاحير . غطسوا  
بأقدامهم وسيقانهم في بركة من مياه وهم يتحركون حركة مشن الأرز .  
ويدفعون زوجاً من الحمامين يسمع جندهم الأسود فوق النجم المتكرر .  
وهما نروجان ونجيثان في حركة بغيضة متكررة لا معنى لها . وزأنا التفتيات  
يرقصن على أنغام الموسيقى البيضاء . وقد الحثت ملاحظ الدقيقة الجنسية  
خلف طبقات من الأصباغ حولت لوجوهه إلى شحنة . وتبعنا ديكين  
مهاقتين يتعاركان دون حماس . وكأتهما يركدان هما أيضاً أنها مجرد  
تمشينة . وزأنا مباراة نكرة تستخدم فيها الأيدي والارعوس والأقدام لإدخال  
الكرة في سلة رفعت عالية فوق رعوس اللاعبين . وشاهدنا مباريات  
بالسيوف والرماح والعصى . شارك فيها الشباب والتفتيات بعنف ومهارة .  
تخطف الأتناس خوفاً من أن يصاب منهم أحد . ومع ذلك حس أن  
كل حركة محسوبة . مدروسة بدقة . وتبعنا مباراة في الملاكمة يستخدم فيها  
الخصمان قبضات أيديهما وضربات أقدامهما في أي موضع من الجسم  
مهما كان خطراً . وأخيراً عرضوا علينا فيلاً ضخماً يحمل الواحاً من  
الخشب : التيك . التميل ليلقي بها في بركة من المياه تتحرك فيها ثعابين  
سوداء : يصل طولها إلى عدة أمتار .

برغم ضحالة العرض كانت الحديقة مزدحمة بأفواج من الثرؤار .  
أغلبهم سياح أمريكيان أو إنجليز أو فرنسيون يتابعون كل ما يحدث  
باهتمام وحماس .

تري لماذا لم أستمع بهذه المناظر؟ رفعت ثمرة جوز الهند إلى فمي  
وتركت السائل الشفاف المنعش يتدفق بغزارة إلى حنقي . الثمرة كبيرة  
بنية اللون ، تغطيها ألياف من الشعر الخشن من الخارج : بيضاء كاللبن  
من الداخل . قال لي صديقي :

ما رأيك ؟

قلت :

« العذبةم عنيفة .

شعب كذا الناي " تكون من قبائل محاربة . وتاريخ بلادنا هو تاريخ الحروب بين الأسماء والسلاطين . وأنساب عدنا يتسرب على المبارزة بالسيوف والرمح . وعلى استخدام الحمى وعلى المصارعة والملاكمة منذ نعومة أظفاره . .

« أجسادهم كالمحاط قوية . وسريعة . ولكن هل تشارك الفتاة في القرية أيضاً ؟ »

« إلى درجة أقل . ولكنها تشارك في الرقص وفي اللعب . »

عدنا إلى السيارة . أشعلت سيجارة وتركت نفسي تسبح في حالة بين اليقظة والنوم . الأشياء تخلق بعيدة عند أطراف الوعي . مررنا أمام مبنى كبير منخفض لونه أحمر وتخطيط به حديقة واسعة . رأيت أفواجاً من الناس يخرجون من الباب الرئيسي . شباناً وشابات يحملون كتباً . ومجلات . وأطفالاً من المدارس ، وأسراً بأكملها أغلبها يبدو عليها رقة الحال .

سمعت صديقي يقول :

« هذا هو المتحف . »

« وكل هؤلاء الناس ؟ »

« زوار . كل يوم أحد يحضرون بالآلاف . »

مررنا بشارع طويل - على جانبيه صفوف من الحيوانات الصغيرة .

تطلعت من النافذة إلى تجمعات من الناس تقف أمام آلاف السلع المتنوعة ، كميات لا نهاية لها من كل ما يمكن أن يخطر على بال .

قال مرافقي :

« سوق اللصوص . »

« سوق اللصوص ؟ »

نعم اسمه هكذا . هذا تباع كل الأشياء والبضائع المسروقة .  
واللهوئيس ؟

ينظم المعدنية . ولا يدخل إلا نفص اشاكل .  
بئى غرض ؟

تجارة المسروقات هذا شرب . ولكن شعرة رئيس من الأغنياء .  
والأغنياء هم نفوذ . وهم أعوانهم . وهم يدفعون بسخاء . من عنده  
نفوذ يشتري كل شيء حتى ثناس . أيدمشك هذا ؟

### بداية المهمة

استيقظت في الصباح الباكر . كانت عقارب الساعة تشير إلى السادسة .  
السفر يولد طاقة جديدة في العقل والجسم . وقدرة على تحمل الثقل  
المستمر . والجهد متواصل . لو كان أمام الإنسان وسيلة لتجديد الحياة .  
وتغيير العمل قبل أن يصبح روتينياً عادياً لما نضبت ينابيع الطاقة .

جلست في المطعم الصغير أشرب قدهاً من القهوة باللبن الصناعي .  
ففي بالجوكوك يصعب الحصول على اللبن الطبيعي . الثروة الحيوانية ليست لها  
وجود تقريباً . ونادراً ما ترى أبقاراً وجاموساً في الحقول . لم يكن في المحل  
أحد سوى . تعودت أن أتناول وجباتي هنا . كل شيء يلعب ببريق  
النظافة . الموائد البيضاء . والمقاعد المعدنية . والجدران المغسولة والأطباق  
حتى وجوه الثلاث فتيات وعمودهن . والشباب . الذين يديرون شؤون  
المطعم . ويررحون ويحيئون بأقدامهم العارية فوق البلاط .

خرجت إلى الشارع ، وسرت متمهلاً . فما زال أمامي ساعة من الزمن .  
أفواج من الناس يسرعون إلى العمل . وعلى الأرصفة تجلس جماعات  
صغيرة من الشباب والشابات في دوائر يتناولون طعام الإفطار ، ويتبادلون  
الأحاديث الضاحكة . شيء ما في جلستهم على الأرض ، يشعر بالانسياب  
الطبيعي للحياة بدون عقد . إلى جوار إحدى المجموعات جلست امرأة

تبادل معهم الحديث . وتستقطق قطعاً صغيرة من الموز في إناء مسطح  
تغلي فيه طبقة رقيقة من الزيت . كانت تنتظر حتى تتحول شرائح الموز  
إلى اللون الذهبي . ثم تنقلها إلى مصفاة كبيرة ما تكاد تمتلئ حتى تفرغ  
من محتوياتها لتبتلعها أفواه الشباب على الأرض . والسائقون بسرعة  
فوق الأرضفة .

أفحمت نفسي بين الأجساد في المصعد . وضعنا إلى الدور الثامن .  
المنبى حديث تكثر فيه الأبواب الخشبية . والمعادن اللامعة . والزجاج .  
ومربعات القيشاني المذرة . والرخام . كانت الساعة تدق الثامنة والتصف  
عندما اجتزت الباب الخارجي . فحت اللوحة النحاسية « المكتب الإقليمي  
هيئة العدل الدولية » .

استقبلني سيادة تايلاندية صغيرة القوام . وبعد أن اطمأنت  
على ترتيبات الإقامة وعلى تفاصيل برنامج الرحلة فوجئت بها تقول :  
« وصلتنا البرقية التي تحدد موعد وصولك متأخرة . ولذلك لم نتسكن  
من عمل الترتيبات اللازمة لزيارة برنامج تنظيم الأسرة هنا في تايلاند .  
وفي سنغافورة . أما مؤتمر كوالالامبور . وزيارة الهند وباكستان فإن أماننا  
فرصة كافية لترتيب كل شيء » .  
أحسست بالضيق يعاودني صدري . سكتت لحظة حتى أهدأ ثم  
سألها :

« يا سيدتي . ماذا جئت كل هذه المسافة إذن ؟ »

هزت كتفها وقالت :

« ماذا تفعل ؟ وصلنا برقية متأخرة واتصلت بالبيئات المسؤولة  
: عن تنظيم الأسرة هنا . وفي سنغافورة . ففعلوا إن الوقت المتاح لا يكفي  
لترتيب البرنامج المطاوب » .

فكرت قليلاً . أما هي عشرة أيام وفي أكن مستعداً لتضييع هذه الفرصة .  
أني اقتراح . أرجو أن تتصلني بالمسؤول عن تنظيم الأسرة هنا

وأن تبديعه أنني سأمر به في المكتب . بعد ساعة مثلاً . وارجو أيضاً  
 أن ترتبي سيارة توصيلني إلى هناك . هل هذا ممكن ؟

أعتقد أنه لا صعوبة في ذلك .  
 أشكرك . سأستذكر في أن أبقى هنا حتى تقوم بالاتصالات اللازمة .  
 تفرستني رجليها . لم يبد عليها أي شيء يتم عن الرضى أو الضيق .  
 لم أكن قنم تعودت بمرور هذه الوجوه التي يصعب معرفة ما يدور تحتها .  
 ولكنني أدركت أنها بلد أن الناس في تارلان لا يظهرون بسهولة ما  
 يشعرون به . فالأشواق تبقى مدفونة بعيداً عن السطح . وتحتفظ يقف  
 كجدار من الجليد نادراً ما تنجح في إذابته .

قامت وخرجت من الحجرة . وعادت بعد قليل وقالت بالصوت  
 الخادى نفسه . بانتظرة المسطرة الخالية من أي العمل :

... مدير المشروع المسر " وينيت " يتشارك الساعة لعاشرة . وسائق  
 السيارة سيحضر هنا به . نصف ساعة ليصطحبنا إلى مقر تنظيم الأسرة .  
 المسافة من هنا إلى هناك تستغرق ثلاثة أرباع ساعة .

شكراً . هذه أول خطوة . ولأن بالنسبة إلى زيارة سنغافورة .  
 أقترح إرسال برفقة أخرى إلى المسؤولين بمبعاد وصولي . وإعداد رسالة لهم  
 أحصلها معي حتى يظمنوا إلى صمعي الرسمية . وسأقوم أنا بالاتفاق معهم  
 على البرنامج بعد وصولي .

سأعرض فكرة لرسالة على المدير . نعم البرقية . وليس لدينا  
 مكتب هناك وبالتالي لا نستطيع أن نخاطبهم مباشرة . لا بد أن نرسل  
 أولاً إلى فرع صندوق تنمية المشروعات السكانية لبيئة الأمم المتحدة في  
 كوالا لامبور ليتولوا الاتصال بهم . وستكون أنت في سنغافورة قبل أن  
 تنتهي هذه الإجراءات .

إذن لا داعي للبرقية . أرجو أن تعدوا الخطاب الذي سأحمله معي  
 وسأمر باكرأ لتسلمه . هل يمكنكم القيام بحجز مكان على الطائرة ، وحجرة

في أحد الفنادق في سنغافورة ؟

« هذا ممكن . لدينا مكتب خاص بترتيبات السفر ، ستصل بالآنسة المشؤلة ويمكنك أن تمر بها بعد أن تنهى من هنا . هل أعددت ورقة بالبرنامج الكامل ومواعيد السفر ؟

« نعم ها هي ذى . . . . . سددت بى بالورقة .

« حسناً . سأعمل الترتيبات اللازمة مع مكتب السفر فيما يتعلق بالطائرات . والفنادق . وسأرسل الترتيبات حتى ينتظرك أحد في كل مطار . أظن أنها أول مرة تذهب فيها إلى هذه البلاد ؟

أحسست بشعور من الود ينمو في داخلى فابتسبت ناحيتها وقلت :  
« نعم أول مرة فعلاً . . . . .

حماقت في وجهى بنفس النظرة الجادة فتمت من جسدى وقلت :  
« سأمر باكراً لأخذ الرسالة وتذاكر السفر . أشكرك . . . . .  
ثم فتحت الباب وخرجت .

### الناس والموارد

السيارات تسرح عبر الشوارع . وجهاز التكييف ينفث هواء بارداً منعشاً في الجوالحار . عندما حسمت بالركوب فتح لي السائق الباب الخلفى . ولكنى أشرت إلى الباب الأمامى وجنست إلى جواره . بدت عليه لحظة اندهاش خفيفة سرعان ما عاد وجهه بعدها إلى الحمدود المعتاد . نظرت بطرف عيني إلى ملامحه السمراء . شىء ما فيها لا يشجع على الحديث . آثرت الصمت وتأمل الشوارع والناس من النافذة .

المستر « وينيت » رجل مستدير الوجه . أبيض اللون . جسمه المكثف يقبع في هدوء خلف المكتب الكبير المغطى بالأوراق والكتب والملفات . شرحت له كيف أننى تكبدت مشقة السفر مسافة ستة آلاف كيلو متر لزيارة المشروع الذى يتولى مسؤوليته . فبدت عليه بعض علامات التجاوب . رفع ساعة التليفون العاجى وهمس بضع كلمات سريعة حادة ثم أعادها

إلى مكانها وقال :

ليوم سنسبع إلى شرح مسجل برنامج تنظيم الأسرة ومعه بعض شرائح الإيضاحية . وبعد ذلك ستقابل مديري الإدارات وتجري معهم مناقشة حول عملاً . وينتساء من باكر سترتب لك بعض الزيارات لمستشفيات والوحدات الخدمية . .

سمعت قرعاً خفيفاً على نيباب . دخلت فتاة بموسطة الطول ووقفت صامتة كأنها تنتظر الأوامر . قال :

الآنسة " سون " سترافقتك في أثناء زيارتك . .

نظرت ناحيتها وأمدت برأسي محيياً .

ردت التحية بالتحفاة الخفيفة . قمت من جلستي . شددت على يده الممدودة . وقفت تحفاة تنتظري فأشرت ها بأن تقدمني . فتحت الباب وتبعها عبر الباب الضويل الضيق . وعلى اندراجات . تنحدر إلى أسفل في دوائر حلزونية . وصلنا إلى حجرة فسحة بها آلة سينا وشاشة بيضاء ، وملصقات ملونة على الجدران وموائد مهندسية للرسم وآلات تسجيل . سحبت أحد المقاعد الخلدية ووضعتة وسط الحجرة . أشارت إلى الجانوس ثم قالت :

« أتريد شايأ مثلجأ أم قهوة مثلجة ؟ »

تقابلت عيوننا لأول مرة وفجأة أضاعت وجهها ابتسامة دافئة مرحة جاءت ثم ذهبت بسرعة كالشمس في يوم ممطر .

قلت :

« قهوة مثلجة لو سمحت . »

## صوت وصورة

الشريط المسجل يحدثني بصوته الآلي عن برنامج تنظيم الأسرة في تايلاند ، والجانوس السحري يفتي بالرسومات البيانية والأرقام على الشاشة

المبيضاء . أوسائل عصرية دقيقة موحدة المنضمون والنظ . ولكنني أحسست  
وأنا جائس وحدي في الخلاء . أنها لا يمكن أن تكمل الإنسان :  
وأن تساعد . ولكنها لا يمكن أن تكون بديلاً عنه .

توقف أزيز الأجهزة فجأة . خطرت في فكرة غريبة . ماذا لو نسوا  
وجودي وتركوني هكذا في الحجرة المظلمة المغلقة تحت الأرض ؟ ولكن  
لم يكن هذا الخاطر يمر بذهني حتى أحييت الأوار ودخلت الأنساق  
تمشي بخطوات صامتة ليته عبر الحجرة المضيئة .

« أرجو أن تكون قد استفدت من التسجيل .  
شكراً . أخذت فكرة عامة عما كنت أريد . »

« هل تعبت ؟ »

« لا بالعكس فتحت رغبتي لمعرفة المزيد . »

« هيا بنا . أعددت لك لقاء مع مساعد المدير ورئيس الإدارات  
المختلفة في المشروع . »

انقلنا مرة أخرى عبر بهو طويل ضيق ودخلنا حجرة فسيحة .  
كان ثلاثة من الرجال يجلسون فيها على مائدة للاجتماعات . وقفوا وسلموا  
على ثم دعوني إلى الجلوس معهم .

مرة أخرى وجدت أمامي القهوة الثلجة المنعشة ولكن هذه المرة  
كانت الأكواب أكبر حجماً مصنوعة من الزجاج السميك وذا يد كتملك  
المستعملة في شوب البيرة .

هتف صوت في داخلي « لكل مستوى أكوابه » . ذكرتني بمصر .  
« أقداح » القهوة التي تختلف بين مكاتب الموظفين . وذلك القلح  
المميز الذي ينص « سعادة البك » دون غيره والذي يوضع أمامه أحياناً  
قبل أن يقدم قلح لضيوف .

عرفت من خلال المقدمات الأولى أنهم ثلاثة أطباء . وأنهم التحقوا  
بالعمل في المشروع منذ بدايته . أي منذ سنتين . قال لي المدير المساعد :

سأل . وعيننا أن نجيب .  
 لاحظت أنكم جميعاً أضياء . ألا يوجد بينكم رجال أجمع ،  
 وتربية . وثقافة . وتعليم . وتنظيم قوة عاملة .  
 لا . فشكة تنظيم الأسرة مرتبطة في بلادنا بالصحة ولم تدخل  
 بعد في مجالات تربية وتعليم . والعمل الاجتماعي والثقافي . نحن نحاول  
 بشكل أساسي أن نتصل بالسيدات اللاتي يترددن على مراكز رعاية  
 الأرملة المزمعة سواء في الوحدات أو المستشفيات . وأن تمنعهن باتباع  
 وسائل منع الحمل . إما باستخدام الأقراص الخاصة أو اللولب .  
 وقد لاحظنا أن عدداً كبيراً من السيدات يلجأن إلى الإجهاض للتخلص  
 من حمل غير مرغوب فيه . مما يعرض صحتهن . وحياتهن لمخاطر عديدة .  
 ولذلك نتصحهن باتباع وسائل منع الحمل .

، لاحظت في أثناء التسجيل المصور الذي استمعت إليه أنكم ندلال  
 الستين . أي منذ بداية المشروع . حققتم نتائج سريعة . فإلام  
 تعزبون هذا النجاح ؟

صمتوا مدة كأنهم يفكرون . ثم أجاب الطبيب الخالس بخواري  
 بجملة قاطعة علمت فيها نبرة التأكيد . فأثارت شكوكي :

« لأننا أظهرنا العلاقة الوثيقة بين صحة الأم والأطفال . وبين عدد  
 مرات الإنجاب . »

، وبالنسبة للرجال ماذا فعلتم ؟

، ازلنا في بداية مجيئنا . ولم نتوسع في عملنا بين الرجال

حتى الآن . .

استمرت المناقشة نصف ساعة ولكنني أحسست بالفتور يتأبني  
 بعد قليل . فلم أشعر بأنني اكتشفت شيئاً جديداً ولم نشف بعض الإجابات  
 غامبي أو تمنعني . فتممت واستأذنت . وجدت الأنسة سود في الحجرة  
 الخارجية . تقدمت ناحيتي وقالت :

بِأهل البيت ؟

قلت :

« نعم »

« السيارة تنتظرني في الخارج لتجديني إلى الفندق . غداً في الساعة السابعة في الصباح الباكر سأمر بك بسيارتي لنأني معاً إلى المكتب هنا . ثم نستقل سيارة أخرى نذهب بها لزيارة مستشفى لولادة تبعد عن بانجكوك مسافة ١٢٠ كيلومتراً تقريباً . ستمضي اليوم هناك ونعود آخر النهار .

هل توافق على هذه الترتيبات ؟ »

« أوافق عليها تماماً . وداعاً وإلى اللقاء باكراً صباحاً » .

### حديث مع الأنسة « سون »

دق جرس التايمون في حجرتي . نظرت إلى ساعة اليد في معصمي فوجدتها تشير إلى الساعة السابعة إلا ربعاً رفعت الساعة . من الجانب الآخر جاء صوت فتاة تتحدث بالإنجليزية بتلك النبرات الآسيوية المميزة .

قالت : « صباح الخير . أنا سون » .

شعرت بشيء من الارتباك لأنني لم أكن مستعداً قلت :

« صباح الخير . لقد وصلت قبل الميعاد » .

« أعلم ذلك . تركت البيت مبكرةً لأتفادي زحام السيارات » .

« سأكون معك بعد خمس دقائق » .

أعدت الساعة إلى مكانها وارتديت ملابسى بسرعة : ثم هبطت

في المصعد إلى الصالة .

السيارة الصغيرة اليابانية « مازدا » تطن بصوت منظم وهي تسرع عبر الشارع . والفتاة الصغيرة تفودها بثقة وسط الزحام المتزايد وأنا أجلس بجوارها أختلس النظرات إليها بين الحين والحين ، وأحاول أن أفهم

أى نوع من ثقتيات هذه التي ترتدى أنني جيب بدون أن يبدو عليها  
أنها تريد استعراض فتنتها أو أنها تهتم بها . شعرها تضويزل الأسود  
منسدل على كتفها . ووجهها مريح خال من تصبغات وأساحيق .

قلت :

« هذه السيارة . ما رأيك فيها ؟ »

« متينة وسريعة واستهلاكها في الوقود قليل . إنها يابانية الصنع . »

سكت لحظة لتتفادي موتوسيكلًا برز فجأة من ناحية إيمين

ثم استطردت :

« اليابان تبعث إلينا بنسعين في المائة من السيارات التي نستوردها . »

« وفي باقي المجالات . »

« تزحف بسرعة : ساعات . والأقلام . والأقشعة الجاهزة . »

وأجهزة الراديو والتلفزيون وآلات السينما والتصوير . وعدد كبير من السلع . »

« أتنافس أمريكا إذن ؟ »

« بدأت . ولكن أمريكا مازالت مهيمنة عن طريق البنوك وشركات

التأمين . والشركات التجارية . »

كنا قد وصلنا إلى مبنى مشروع تنظيم الأسرة . تركنا السيارة وصعدنا

إلى حجرة صغيرة تحس فيها بالترتيب والنظافة شأن المكاتب التي رأيتموها

في بانجكوك . أجلسنى على مقعد وقالت :

« أنت لم تتناول إفطارك بعد . أليس كذلك ؟ »

قلت :

« نعم . »

« هناك مطعم صغير بجوارنا . هيا بنا . »

هبطنا الدرجات من جديد ومشينا مسافة قصيرة عبر شارع ضيق

تحيط به المباني الحكومية ومساحات من الحشيش الأخضر . كل شيء هنا

نظيف لا تجد ورقة على الأرض . أو سبجارة . ظاهرة ملفنة فلنظف  
تذكرتها أينما ذهبت .

جلسنا أمام المائدة الصغيرة تحت سقف من قيل امر كعب مشدود  
بجبال ملونة . تتدلى منه بعض الأعلام . وضع العصي أمامنا كوبرين  
من القهوة الساخنة باللبن وكعكة إسفنجية . شربت القهوة بهم وأكنت  
الكعكة ثم أخرجت علبة السجائر . عرضت عليها أن تدخن ولكنها  
رفضت . اقترب منا العصي فهبست بدفع الحساب ولكنها ألقمت ناخيتي  
بنظرة صارمة فيها شيء قريب من الغضب فأوقفت يدي .

« أنت ضيفنا هنا . »

أخرجت بعض النقود من كيسها الصغير وأعطتها العصي ثم انصرفنا .

السيارة « اللاندروفر » الخضراء تنهب طريق الأسمنت العريض  
الذي يمتد في شريط أسود لامع بين حقول الأرز حتى الأفق .  
السائق النحيل يقودها بسرعة وحذق . جلسنا أنا والنتاة في المقعد الخلفي .  
من النافذة رأيت البيوت الخشبية . والحقول . ومساحات من الزهور  
البرية . وقنوات تغطيها النباتات المائية ذات الأوراق الخضراء العريضة  
المتفتحة . والزهور البنفسجية والبيضاء تشبه النوتس . وأسراب البط  
الأبيض . وبين الحين والحين جاموسة تتميز عن تلك التي تراها في  
مصر بقرونها الطويلة . أخذت أسأدا عن بعض تفاصيل ما نراه . وبالتدريج  
تبخرت بقايا الكلفة التي أحسست بوجودها أول الأمر . أدركت السبب فجأة  
عندما بادرتني بسؤال :

« كم سنك يادكتور ؟ » .

قلت :

« تسع وأربعون سنة . وأنت ؟ »

« ست وعشرون » .

محفوفة أنت . حياتك كلها ما زلت أمامك . أما أنا فالجزء  
الأكبر منها أصبح ورأى .  
ضحكت كأنها لم تأخذ كلامي مأخذ أخذ . ورأيت عينيها تنمجان  
بيريق أضواء الوجه كله .

« ما هو عملك في مشروع تنظيم الأسرة ؟  
أنا إحصائية إعلام تخرجت في كلية الآداب .  
هل لديك إخوة ؟  
« في أخ واحد أصغر مني فقط .  
« ووالدك ؟ »

« والدي موظف على العاش . والذات تعمل مدرسة .  
« وهل أنت مسرّخة في عملك راضية عنه ؟  
« إلى حد كبير ولكن . . . . .  
حزت كتنفياً كأنها تشعر بشيء لا تعرف كيف تعبر عنه .

« ولكن . . . . . ماذا ؟  
« أشعر أحياناً بعدم الرضى .  
« عم ؟ »

« عن حيساتي .  
« لماذا ؟ »

« كأنني أسير في طريق مسدود .  
« طريق مسدود ؟ لم أفهم ما قصدته .  
« أقصد أنني أفقد الأمل الكبير .  
« وما هو الأمل الكبير ؟ »

« أن يصنع الإنسان شيئاً كبيراً وأن تكون أمامه فرصة لذلك .  
« أنت شابة وتعملين . . . والإنسان يحقق ما يريد عن طريق

العمل . »

« ليس بالضرورة . فقد يكون العمل هو الطريق المسدود » .  
« كيف ؟ »

« إذا وجد من يسدون الطريق .  
« وهل تظنين أن هذه مشكلتك أنت فقط ؟ »  
« لا . هي مشكلة جيل الشباب في تايلاند » .

« لم أحس بهذا الانطباع . أغلب الشباب الذي رأيتهم بدأ لي أنهم  
تأثروا بسطوحيات الحياة الغربية : السيارة وطريقة اللبس : والأفلام ،  
والرقصات المجنونة . ولا شيء سوى هذا » .

« هذا جزء من الشباب فقط . الجزء الذي " تأمرك " ولكن أغلب  
الشباب يعانون مشاكل صعبة » .

« لماذا ؟ »

قطبت جبينها كأنها تنكر . ثم قالت :

« لا أعرف بالضبط . يبدو لي وكأن البلد يسيطر عليه كبار السن .  
هناك روتين . نحس أن البلد ليس بلدنا . إن مصالح فئة صغيرة هي  
التي تتحكم فيه .

« والشباب ؟ »

« نحس بعدم الارتياح ، بل بالتمرد إزاء كل ذلك ، ويبحث  
عن مخرج . ثم التعليم هنا ياهظ التكاليف ، وفرض العمل محدودة .  
فليست هناك سياسة للتصنيع يمكن أن تستوعب الشباب . ولذلك بدأت  
تظهر مشكلة بطالة بين الشباب المتعلم » .

« وأنت ماذا تفعلين ؟ »

« لا شيء . أقوم بما يطلب مني وحسب » .

« كيف إذن تتغير الأشياء ؟ »

- « وماذا أستطيع ؟ »  
 « من يريد شيئاً لا بد أن يحارب من أجله » .  
 « لا أعرف ما أريد » .  
 « تريدن على الأقل أن تفتتح أمامكم الفرص » .  
 « نعم بالطبع . ولكن ماذا أفعل وأنا وحدي ؟ »  
 « لست وحدك . لا تستسلمي . . . ينبغي ألا نستسلم أبداً » .  
 « ولكنني أشعر باليأس أحياناً ، كالتائهة وسط "زحام" » .  
 « كلنا نشعر باليأس أحياناً » .  
 « كيف يمكن أن تتغير الأشياء ؟ هذا هو السؤال » .  
 « إنها تتغير بالفعل . ألم تتغير في بلادكم ؟ »  
 صمتت لحظة وبدأ عليها جهد التفكير .  
 « نعم تتغير . ولكن بصعوبة وبيطء » .  
 « وما هي أهم مظاهر التغيير ؟ »  
 ترددت من جديد .  
 « ربما الإحساس بأننا يجب أن نستقل ، أن نعتمد على أنفسنا أولاً » .  
 « وكيف نما هذا الإحساس ؟ »  
 « ما يحدث الآن في آسيا ، أمريكا تقف مع تايروان لتستفيد ،  
 وعندما تغيرت مصالحها تحنت عنها . وفيتنام . . . انسحابها من هناك  
 أصبح مسألة وقت .  
 « وماذا ؟ »  
 « بروز الصين ، والهند كقوتين كبيرتين » .  
 « تايلاند للتايلانديين . وآسيا للآسيويين » .  
 « بالضبط » .  
 « واليابانيون . ماذا يقول الناس عنهم ؟ »  
 « أغلب الناس يخشونهم » .

« لماذا ؟ »

« يقولون إنهم يريدون التوسع مرة أخرى .

خشيت من ضيقها بأسنني فقلت :

« أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك ؟ »

رأيت الابتسامة الحاضنة تضيء من جديد .

« على العكس . الحديث مع الغريب ممتع . الجلدة التي تنبع

من الاختلاف . والرغبة في الاكتشاف . لا حرج ولا قيود . فأنت

هنا اليوم وغداً في بلد آخر . . .

ضحكت وقلت :

« ربما التقينا من جديد .

ربما . . .

سكتنا لحظة ثم سألتها :

« هل أنت بوذية ؟ »

« نعم . . .

« هل تذهبين إلى المعبد ؟ »

« أحياناً يوم الأحد . كبار السن يذهبون بانتظام . ولكن الشباب

ليسوا مثاهم . »

« لماذا ؟ »

« إنهم يطالبوننا باليقين . ونحن نطالِبهم بالعقل . »

أبطأت السيارة من سرعتها وانحنت في شارع ضيق . رأيت عدداً

من المباني البيضاء المنخفضة . توقفنا عن السير بالقرب من إحداها .

ودلفنا من باب جانبي ضيق إلى مكتب فسيح . قابلتنا لفحات الهواء

البارد المكيف . أسقطت جسمي في مقعد من الجلد اللين لأستريح .

« . . . »

كل شيء في المستشفى لونه أبيض . ناصع البياض . الجدران .

والأبواب . والأرض . والأسرة وثقوا لبيب . وملابس الأضياء وانمرضات .  
كل شيء ما عدا الأدوات والأجهزة المعدنية اللازمة .  
وقفت أستمع إلى شرح المدير .

« هنا في هذا العنبر نضع السيدات الثلاثي أجريت نحن عمليات لتعظيم .  
وتجري هذه العملية بقطع قناة المبيض . وهي تعمل لكل سيدة تضرب إجراء  
العملية إما لأسباب صحية أو لأنها لا تريد . هي وزوجها . مزيداً  
من الأطفال . والمستشفى يحتوي على مائتي سرير . ومدرسة لثمريض :  
وسكن للأطباء . والأضياء ليس لهم حق فتح عيادة ولكنهم يتقاضون  
أجوراً عالية . ونحن نهتم بالسيدات الحوامل قبل الولادة وفي أثناءها وبعدها .  
وعندما يحضرن في الزيارات إلى المستشفى فإننا نجتمعهن في حجرة  
معدة لذلك ونوجه إليهن بعض الأحاديث المبسطة عن صحة الأم .  
وتغذية الأطفال . وفوائد تنظيم الأسرة ووسائله . »

« بماذا تفسر إقبال السيدات على الولادة داخل المستشفى ؟ »  
« مستوى الخدمة الطبية . النظافة . الراحة . جودة الطعام :  
فهذا المستشفى نموذجي يخدم المدينة . وعدد سكانها ٨٠,٠٠٠ »  
ويخدم القرى المجاورة لها . »

« وهل يوجد مستشفى آخر مثله ؟ »  
« واحد آخر . هذا بالإضافة إلى المستشفيات الكبيرة في  
بانجكوك . »

« وبماذا تفسر النجاح السريع لتنظيم الأسرة في بلادكم ؟ »  
« الآراء في هذا تختلف . ولكن لي رأياً في هذا الموضوع مبنياً على  
مشاهداتي للحياة في الريف والمدينة . فقد انتقلت كطبيب بين مختلف  
أرجاء البلاد . وأعتقد أن سرعة تقبل فكرة تنظيم الأسرة نابع من وضع  
المرأة . »

« كيف ؟ »

« المرأة في تايلاند تشكل ٤٠٪ من نقرة العائمة الشبيطة وهي تعمل خارج المنزل في عمل مستقل عن زوجها وعن البيت . . .  
« وما أثر ذلك ؟ »

« الاستقلال الاقتصادي . وثشعور بثيمتها . وبذاتها . ونظرة جديدة إلى الحياة ، إلى مستقبل الأسرة ومستقبل أطفالها . . .  
وقمت إلى جوار السيارة عند باب الفندق . مدت الفتاة يديها اللاتين وأحاطت بهما يدي المندودة . أحسست بحرارة الوداع في اليدين ، والوجنتين اللتين كستهما حذرة خفيفة وبريق العينين .

تري ماذا ستأني به الأيام ؟ صعدت إلى حجرتي . أعددت الحثائب وأودعتها عند الاستقبال . دفعت الحساب ثم توجهت إلى الصالون باحثاً عن مقعد . كان أمامي ساعتان من الزمن قبل ميعاد السيارة التي ستحملني إلى المطار . جلست على المقعد وأخذت أقلب في الصحف الموضوعة أمامي .  
طلعتني العناوين المكتوبة بالبنط الأسود المربع .

« إجراءات جديدة لمراجعة الخطر الشيوعي . . .  
« متوسط الدخل في تايلاند مائة دولار في السنة . . .  
تسمرت عيناى على عنوان كبير في وسط الصفحة :

« مصر تطلب سحب الخبراء السوفييت » .

جرت عيناى عنى لسطور بسرعة في لحظة ذابت المسافات الشاسعة ، وأحسست بذلك القلق اللذين الذى يتنقض على المسافر أحياناً كما تنقض الطيور الخارجة من السماء الصافية . مددت يدي إلى الصحيفة وأخذت أقرأ الخبر من جديد .

## مهما بعد الوطن !

الطائرة تسبح مرة أخرى فوق سطح العالم . والموسيقى الهادئة تصل إلى أذنيك وأنت جالس هكذا فوق عرش الدنيا بعيداً عنها ، وعن مشاكلها

تأمل حياتك بنوع من الانفصال المريح وكأنها ليست حياتك ،  
ولست مشاكلك .

ولكن مينا كانت مسافات البحر والأرض التي تفصل بينك وبين  
التماهرة . وبهما كان الارتفاع ندى تصل إليه الصائرة في الشتاء العربي ،  
فإنك لحظات تشعر فيها بحالة من الغربة الشديدة . برغبة في العودة .  
بأن تترك كل شيء وتعود على الفور . إلى مكانك حيث ولدت .  
وترعرعت ، وعرفت معنى الوطن . بكل ما تحمل هذه المعرفة من سعادة  
وتعاسة يختلجان في نسج واحد متشابك فيها الخيط الأبيض والسوداء  
لتصنع صورة فيها عذاب الثمن وجماله .

أغلقت عيني وأسندت رأسي على ظهر المقعد . اللبنة الأخيرة  
في بانجكوك ربما هي التي أثارني في كل هذا انشوق المتجاني إلى الناس  
والأشياء التي تركتها وسافرت .

المنذوب المقيم هيئة اليونيسيف في جنوب شرق آسيا هو الأستاذ  
يحيى درويش . رجل طويل انقامة . يتحدث بهلوه ، ويتحرك بهلوه .  
تشر من أول لحظة أنه واثق من قدرته على التصرف . دعاني لتناول  
العشاء في المنزل . فوافقت بشعور من السعادة إزاء اللقاء المنتظر مع  
هذه الأسرة . ذلك أن المسافر في رحلة طويلة يعاني من الوحدة  
في بعض الأحيان .

كنا قد اتفقنا على أن نلتقي في بهو الفندق الساعة السابعة مساء .  
ليصطحبني في سيارته إلى المنزل . استغرقت المسافة ما يقرب من نصف  
ساعة اخترقنا فيها الشوارع العريضة اللامعة تنالاً أضواؤها تحت سيل  
المطر المبهمر .

المنزل ذو الطابقين جدرانها البيضاء غارقة في الظلام يحيطها سياج  
كثيف من الأشجار الاستوائية بأوراقها الخضراء المسطحة ، يسقط فوقها  
المطر بصوت رتيب ، يعلو ويهبط في سكون الضاحية . خلعنا أحذيتنا

على الطريقة التاييلاندية وعبرنا شرفة كبيرة عبر النوافذ المفتوحة إلى حجرة الاستقبال الواسعة الأرجاء . فالآسيويون في هذه المنطقة من العالم لا يتبلون إلى كثرة الخمر والبخار . وينفضون المساحات الواسعة التي يمكن أن تستغل لمختلف الأغراض . والتي تعضى شعوراً بالبراح والراحة . حجرة الاستقبال التي دخلناها كانت مقسمة إلى عدة أركان . ركن لاستقبال الضيوف والبلاوس . وركن للتيليزيون والراديو . وركن للقراءة . وجزء مستطيل على اليمين تحته مائدة طويلة للطعام . ويفصل بينه وبين باقي الحجرة حاجز خشبي يشبه المشربية تحت عليه أسماك . وعصافير . وزهور ملونة .

بعد دقائق كان الحديث يدور في انسياب دائم . أحسست بفرحهم بهذه التيلة يقضونها مع زائر غادر الوطن منذ زمن قريب يلتقطون منه أخبار الأصدقاء . ويسألون عن أشياء تشغل بالهم . وأحسست أنا بالراحة في جو هذه الأسرة المصرية . كالمسافر يصل إلى بيته بعد سفر طويل . كان معنا السفير الأستاذ : مصطفى عيسوي إلى جانب أفراد الأسرتين . رأيت الوجه الأسمر المفتوح لأحد الشبان الذين كانوا يجلسون معنا ورن في أذني السؤال الغاضب الذي وجهه إلينا :

« إلى متى نتحمل الوضع الذي تفرضه إسرائيل ؟ »

« وما الحل ؟ »

« أن نستخلص أرضنا بالسلاح . هل يوجد حل غير هذا ؟ »

سادت لحظات وجوم في الحجرة .

•••

انتزعني صوت هامس من تأملاتي :

« أتريد فنجاناً من القهوة ؟ »

تلقت إلى أعلى . وقف المضيف إلى جوارى يحمل وعاء من الزجاج يتصاعد منه البخار . شيء في هذه الطائرة مختلف . الابتسامات المشرقة

المصضعة . والأصوات الناعمة الآلية اختفت لتحل محلها نثرقة التي  
لا تخلو من الجحد .

أشكرك . متى نصل إلى سنغافورة ؟

بعد نصف ساعة . .

من النافذة رأيت المدينة تخرج من جوف الليل مثل بساط لا ينشئ  
من الأضواء الملونة تتحرك عثياً السيارات كالديدان الفوسفورية .  
خرجت من باب المطار الضخم بجدرانته تبدو كالرخام الأبيض في النور  
الساطع المنبعث من أماكن خفية . أحمل في صدري شعوراً من الضيق ،  
فعند حاجز الجمرك ووجهت بالرجل يقول :

« من أي بلد أنت ؟ »

« من مصر » .

« آها . . . من مصر » .

حملت في وجهي بشيء من الوقاحة وقال :

« أمعلك سلاح ؟ »

« لا » .

« محدرات إذن ؟ »

« ولا محدرات » .

« ما هذه الأنوية ؟ »

« أنوية مرهم لتجروح » .

أخذ يقلبها بين يديه . رفع عنها الغطاء وضغط عليها . فحص قطعة  
من المرهم بين أصابعه . ثم أخذ يدفن أصابع يديه في أركان الخنادق  
بعد قليل أشار بقلعها . وانتبه إلى مسافر آخر كان ينتظر دوره .

السيارة تمرق عبر الشوارع بتلك السرعة الجنونية التي تعودتها الآن .  
أخذت أتطلع إلى وجه السائق . البشرة البيضاء وشكل العينين توحيان بأنه  
صيني الأصل . أصبحت أستطيع التمييز نوعاً ما بين الأجناس المختلفة

في هذه المنطقة . اخواء الساخن ينساب من النافذة المفتوحة . كل شيء هنا يذكرني بياضكوك . غير أن الأشجار العملاقة . والخدائق والمساحات الخضراء تملأ كل ركن من أركان المدينة أمحها في الضوء الأبيض الساطع المنبعث من أعمدة النور العالية الخفية كالعنق الرقيق .

كانت الساعة قد قاربت الواحدة صباحاً عندما أدخلت جسي المرهق تحت الأغطية الصوفية الناعمة . تحسست بنفسي أسبح فوق المرتبة الإسفنجية . وبالنوم يتغلغل إلى كيانى مع نغمات الموسيقى المنبعثة في خمس من مكان إلى جوار السرير .